تركيب الرقيم السومري للنشر والتوزيع

2026

محرات جدي

رواية واحداث قص حقيقية عاشها اجدادي، وسمعت كل حدث منها مباشرتا من شفاههم هم الذين مروا بكل تلك الاحداث المسارية التي كتبتها في هذا الكتاب الذي مهما ابرعت في كتابته ستبقى الكلمات والسطور عاجزة عن نقل الحقيقة للقارء اليوم بكل تفاصيلها الماساوية، وستظل احدث اللبادة اللارمنية وسمة عار على جبين البشرية وشاهدا على عنف اللانسان وحقده على اخيه اللانسان.

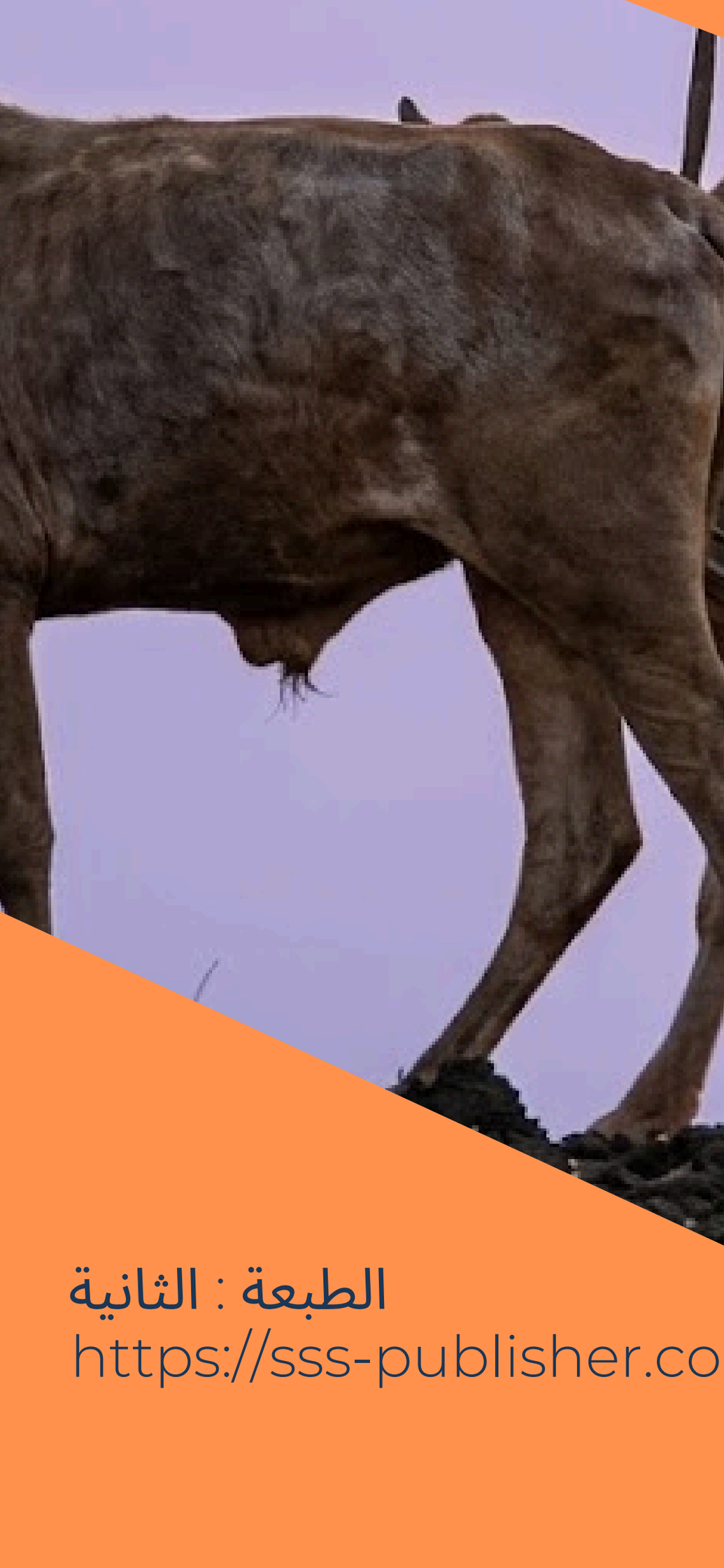

أُعِدَّ بواسطة
نوريك هوفسيبيان

الطبعة : الثانية
https://sss-publisher.com/

مخرّاش جدّي

مِحْرَاثُ جَدِّي
نوريك هوفسيبيان
التصنيف : رواية حقيقية
الطبعة: الثانية

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (بلا) لسنة (بلا)

ISBN: 978-9922-7960-62

DOI: 10.62909/978.9922.7960.62

دار تركيب الرقيم السومري للطباعة والتوزيع والنشر الالكتروني
العراق – ديالى – بعقوبه – شارع الاوقاف
هاتف : 07775262892
manager@sss-publisher.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو وساطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

مِحْرَاثُ جَدِّي

نوريك هوفسيبيان

2026

تنضيد الكتاب

معهد الترجمة والكتاب

«ماليزيا»

تصميم الغلاف

معهد التكنالوجيا

«الهند»

مراجعة لغوية

الدكتور محمد محمد كاظم

«العراق»

التوزيع والنشر الإلكتروني ، تمت فهرسة هذا الكتاب في عدد من الفهارس والمنصات الدولية، منها:

كروس ريف	(CrossRef)
أوبن ألكس	(OpenAlex)
مؤشر الاقتباس المفتوح الأوكراني	(OUCI)
سجل مستودعات الوصول المفتوح	(ROAR)
سيمنتك سكولار	(Semantic Scholar)
دايمنشنز	(Dimensions)
ريسرش غيت	(ResearchGate)
فات كات	(Fatcat)
المعيار الدولي للترقيم	(IAS)
مؤشر الاستشهاد العلمي	(SCI)
أوركيد	(ORCID)
سايليت	(Scilit)

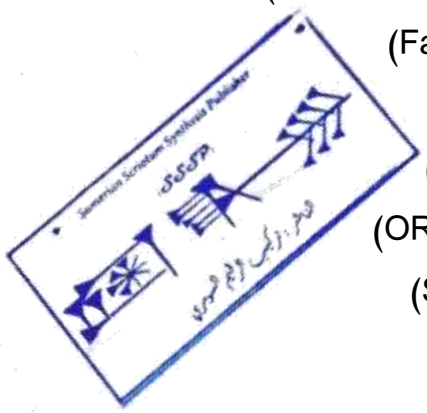

الموقع الرسمي لدار النشر الرقيم السومري للنشر والتوزيع

يتوفر هذا الكتاب عبر الموقع الرسمي لدار النشر، مع تخصيص مُعرّف رقمي دائم (DOI)

خاص به: https://doi.org/10.62909/978.9922.7960.62

نبذةٌ عن المؤلف

وُلد المؤلف في بغداد عام ١٩٦٩م. بعد إكمال الدراسة الأكاديمية العامة، ارتُسم في عام ١٩٩٩م كاهنًا للطائفة الأرمنية الأرثوذكسية في بغداد، والتحق للدراسة في كلية بابل الحبرية للفلسفة واللاهوت في بغداد. وفي عام ٢٠٠٤م لاجل بره طرد من الكهنوت. "طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ ٱلْبِرِّ."(مَتَّى ٥:١٠).

وفي نفس العام التف حوله تلاميذه وأنصاره فأسس الطائفة الإنجيلية الأرمنية في بغداد، وذلك لأول مرةٍ في تاريخ الأرمن في العراق.

مشهود له من الجميع بالإيمان وبالتقوى، والحكمة، والأمانة، والمعرفة... والمجد للمسيح

من مؤلفاته:

- كتاب/ نحو القمم العالية
- كتاب/ اختبار الخدمة بالروح الواحد
- كتاب/ حياة المؤمن المسيحي
- كتاب/ كنيسةٌ ناميةٌ في وادي ظل الموت
- كتاب/ انتصار المؤمن في زمن الوباء
- كتاب/ محراث جدي (وهو قصة حياة ومعاناة أسلافه أثناء المجازر الأرمنية ١٩١٥م)
-كتاب/ تفسير انجيل متى(مقارنة تحليلية بين نص انجيل متى باللغة العربية، والنص الأرمني القديم ثلاث أجزاء)

مِحْرَاثُ جَدِّي

"لِكَيْ يَعْلَمَ الْجِيلُ الآخِرُ. بَنُونَ يُولَدُونَ فَيَقُومُونَ وَيُخْبِرُونَ أَبْنَاءَهُمْ." (المزمور ٧٨:٦)

تأليف

ألقس/ نوريك هوفسيبيان

الطبعة الثانية ٢٠٢٥م

شكر وامتنان خاص

للقس/ هوفسيب كيفوركيان؛ لإشرافه مشكورًا على تنقيح الكتاب لغويًا.

المقدمة

قد ينبر عنوان الكتاب، من الوهلة الأولى، على أن أحداث الرواية عبارةٌ عن قصةٍ أو أسطورةٍ، كُتبت بشكلٍ روائيٍ محدَّثٍ، وكتبها المؤلف من إيحاء مخيلته الواسعة أو من مَلَكَة أفكاره.

لكن الحقيقة التي يجب أن تعرفها يا عزيزي القارئ، أنَّ كل ما ذُكر في هذه القصة من أحداثٍ، وأسماءَ، ومواقعَ جغرافيةٍ، هي حقيقيةٌ بحتةٌ، وتُعتبر حقيقةً وصادمةً للكثيرين.

فكل فقرات الأحداث التي ذُكرت في هذا الكتاب، هي تراثٌ روائيٌ، حيث تناقلته عائلتي عبر جيلينِ متداخلينِ عاشا بعد أحداث الإبادة الأرمنية، (تعتبر الإبادة الجماعية الأرمنية من أولى الإبادات في العصر الحديث، من حيث الأسلوب المنظَّم لتلك الإبادة، وهدفها الأول كان إزالة الاسم الأرمني والعرق الأرمني من الوجود، فيعتبرها العلماء في مجال الإبادات الجماعية ثاني أكبر إبادةٍ وأكثرها تناولًا ودراسةً بعد الهولوكوست.

وقد تم ابتكار مصطلح (إبادة) (Genocide) خصيصًا لوصف ما تعرض له الشعب الأرمني. ولا أَدَل على فظاعة ما ارتُكب بحق الأرمن من المقولة الشهيرة لوزير الداخلية التركي، طلعت باشا، قائلًا: "سوف يتم إفناء وإبادة جميع الأرمن القاطنين في تركيا دون الأخذ بعين الاعتبار لا النساء ولا الأطفال ولا العاجزين. سوف يتم وضع حدٍ نهائيٍ لوجودهم، ولا يهم مدى فظاعة الوسائل، التي ستُستخدم لهذه الغاية، ولا يجوز أبدًا أنْ تتحرك مشاعر الشفقة تجاههم."

كان جيل الناجين، هم شهود عيانٍ ومختبرون لتلك المجازر و المآسي، التي ظلت أحداثها محفورةً في وجدانهم حتى أنفاسهم الأخيرة. كانت جدتي التي عاشت ٩٠ عامًا، على مدى حياتها تقص مآسي الإبادة والجوع، والقتل، وأهوال الهجرة القسرية، التي

مرت بها وهي بنت الثالثة عشر ربيعًا. وكانت طوال سنين حياتها تتذكر تلك المجازر العثمانية وتذرف الدموع. ومن حسن حظي أنني عاشرت، حتى الربع الأول من شبابي، جدي وجدتي، اللذان كانا شاهدَيْنِ ناجيَيْنِ من تلك الإبادة. وعاشا وقائع تلك الأحداث بحذافيرها، ومع ذلك كُتِبَت لهما النجاة من تلك المجازر ليكونا مهاجرَيْن استوطنا أرض العراق الحبيب.

وفي أيام شبابي، قمت بتسجيل هذه الأحداث بأصواتهم على ستة أشرطة تسجيلٍ، و على أساس تلك التسجيلات كتبتُ يومها صفحات هذا الكتاب، ككتاب مذكراتٍ لا أكثر. ثم في أحد الأيام، قررت أن أجعل تلك المذكرات في كتابٍ منظَّمٍ تحت اسم (مِحْرَاثُ جَدِّي).

وبالرغم من كل الحقائق المذكورة، يبقى هذا الكتاب قاصرًا في إظهار بشاعة وعداء الإنسان وكرهه لأخيه الإنسان. وأيضًا، يبقى قلمي قاصرًا في كتابة و إظهار الحقيقة المهولة والمرعبة لتلك المجازر التي مَرَّ بها الأرمن.

وأيضًا، أود أن أذكركَ، يا عزيزي القارئ، أنَّ كل ما ذكر عن المحراث الحديدي، هو حقيقيٌّ وواقعيٌّ، ولا يزال ذلك المحراث موجودًا في مكانٍ ما في قلب أرض أرمينيا الغربية التأريخية، في مدينة موكس الأرمنية (بهجة ساراي الحالية في تركيا)، ومع كونه حقيقةً، إلا أنه يبقى ذلك المحراث ذا دلالةٍ ورمزيةٍ معنويةٍ أصيلةٍ لمحبة الشعب الأرمني لأرضهم ووطنهم المسلوب، فهو تعبيرٌ عن الحب والحنين والشوق لأرض الآباء والأجداد، فكونه من حديدٍ مطليٍّ بشحم البقر، فله رمزية القوة وعدم التعرض للصدأ أو الاهتراء، وهو بهذا يعني أنه لنْ يأتي يومٌ فيه سيتجاهل الأرمنُ، المجازرَ والإبادة الأرمنية المرتكبة بحق أجدادهم من قِبل الأتراك، وستظل هذه القضية مطلبًا متجددًا وحيًا في ضمير ووجدان كل أرمنيٍّ.

وأيضًا، قصة المحراث هو تعبيرٌ معنويٌ عن وصيةٍ قديمةٍ، وصيةِ الجد للابن والحفيد، في حتمية الرجوع يومًا ما إلى أرض وإرث الآباء والأجداد، وصيةٍ تناقلتها وستتناقلها الأجيال الأرمنية، جيلًا بعد جيلٍ بعد جيلٍ...

المؤلف

القس/ نوريك هوفسيبيان

إهـداء

أُهدي هذا الكتاب لذكرى شهداء الإبادة الجماعية للأرمن من قِبل حكومة تركيا الفتاة، في الدولة العثمانية، خلال وبعد الحرب العالمية الأولى، الذين تعرضوا للتعذيب والاغتصاب والإبادة الممنهجة على يد العثمانيين.

وأُهدي هذا الكتاب لذكرى أُولئِكَ الأطفال، الذين بسبب قسوة وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، حُكِمَ عليهم أنْ يُبادوا بلا رحمةٍ، أو يصبحوا أيتامًا محرومين من حنان الأم وعطف الأب.

أُهدي هذا الكتاب لذكرى أُولئِكَ الناجين من تلك المجازر، الذين صاروا سببًا ليعطوا الحياة مرةً أخرى للعِرق الأرمني الغربي ليُولَدَ وينموَ ويدعوَ العالم للخير والصلاح والسلام، كما علَّمَنا الإنجيل المقدس.

أُهدي هذا الكتاب لذكرى الشهداء الأرمن الشجعان، على مدى الزمن من قَبل ومن بعد، من الذين سقطوا وسالت دماؤهم حُبًّا ووفاءً لوطنهم الأم، وأوطانهم التي ولِدوا فيها.

واهدي هذا الكتاب لذكرى اجدادي الذين نجو بإعجوبة من اهوال تلك المجازر ، ارتين (هارتيون) هوسيبيان، ويالدوز هوسيبيان، وجوجان مسروبيان، و راكيل مسروبيان. وأُهدي هذا الكتاب أيضًا لذكرى أبي وأمي، اللذَين ما انقطعا يومًا مِن زرع بذار حب تلك الأرض، وذلك الوطن، الذي سُلِبَ منّا يومًا، ولم يُكتَب لنا الترعرع على أرضه...

ألصورة لجدي (ارتين (هاروتيون) هوفسيب هوفسيبيان)، وجدتي (يالدوز ساركيس ساركيسيان)، اللذَين كُتِبت لهما الحياة والنجاة من تلك المجازر البشعة، ليشهدا عما جرى.
ألصورة في بغداد ١٩٧٩م، وهما الشخصيتان الرئيسيتان في هذه الرواية.

ألفصل الأول

أَجْيَالٌ تَرِثُ ٱلْأَلَمَ

والداي هما من مواليد العراق، وهما مع أقرانهما من الجيل الأول الذي وُلد في العراق، من صُلب الناجين من المجازر العثمانية، بعد التهجير القسري الجماعي للأرمن، من موطنهم الأصلي في أرمينيا الغربية (الجزء الشرقي من تركيا اليوم)، إبان مجازر الأرمن ابتداءً من عام ١٩١٥م (الإبادة الجماعية للأرمن أو مذابح الأرمن، وتُعرف أيضًا باسم المحرقة الأرمنية، والمذبحة الأرمنية، أو الجريمة الكبرى، وتشير إلى القتل المتعمد والمنهجي للسكان الأرمن من قبل حكومة تركيا الفتاة في الدولة العثمانية خلال وبعد الحرب العالمية الأولى. وقد تم تنفيذ ذلك من خلال المجازر وعمليات الترحيل، والترحيل القسري، التي كانت عبارةً عن مسيراتٍ في ظل ظروفٍ قاسيةٍ مصممةٍ لتؤدي إلى وفاة المبعَدين. ويقدِّر الباحثون أعداد الضحايا الأرمن ما بين مليونٍ ومليونٍ ونصف شخصٍ)، حيث نجح أجدادي بأُعجوبةٍ مع من كُتبت لهم الحياة والنجاة، من بين ملايين الأرمن، الذين فروا هربًا من المجازر العثمانية، التي شُنت ضد الأرمن من سكان (أرمينيا الغربية)، التي سكنها شعبنا الأرمني تأريخيًا من بعد الطُّوفان، عبر آلاف السنين. ومن أجل المصالح السياسية تبنَّى العثمانيون خطةً دمويةً لإبادة الجنس الأرمني، الذي كان يسكن تلك الأراضي. فقام بمحاولةٍ لإبادة الأرمن العزل الأبرياء والبسطاء، ضمن حملاتٍ منظمةٍ للقضاء الكلي على هذا الجنس، لكن بمعجزةٍ من الله، نجى من استطاع النجاة منهم، وذلك بالهرب إلى بلادٍ غريبةٍ بحثًا عن الأمان والسلام.

ومن بين المجاميع التي نجت، استطاعت مجموعةٌ، تُقدَّر بنحو ثلاثين ألف أرمنيٍّ تقريبًا، النجاةَ بأنفسهم عن طريق السير بقوافلَ منظمةٍ وغير منظمةٍ، حتى وصلت إلى إيران ومن ثم جاء بها الإنكليزيون إلى أراضي العراق الحبيب، ورحب بهم شعبه المضياف، الذي استقبلهم بكل لطفٍ ومحبةٍ.

واستطاع الناجون إعادة تضميد جراحهم، وتأقلموا مع الوضع الجديد، والجو الجديد، والظروف الجديدة، ودخلوا دورة الحياة مرةً أخرى بعيدًا عن موطنهم الأصلي، ولم يستطيعوا أن يحملوا من أرض الوطن الأصيل، الذي أصبح مغتصَبًا سوى الذكريات والحنين والألم.

وربما الألم هو أحد الأشياء الرئيسية، التي استطاعوا بحرصٍ أن ينقلوه ويورثوه للأجيال الجديدة، التي وُلِدَت بعيدًا عن ذلك الوطن، الذي بات ذكرًى، مجردَ ذكرًى حزينةٍ موشحةٍ بقِصصٍ مأساويةٍ، مِما رآه الآباء ونقلوه للأبناء.

فلم يعودوا يذكرون فيما بعد مسرات الماضي؛ لأنه قد أسدل عليها الستار، ستارٌ موشحٌ بمناظر الدم، والقتل، والعنف. فأي إرثٍ قد يكون بديلًا وملائمًا ليُورَثَ سوى الألم؟!

نعم الألم، هذا ما سمعته في الحوارات العائلية شبه اليومية، والأغاني القومية، وما شعرت به عند سماعي للتنهدات والحصرات، وما رأيته في العيون الباكية وقطرات الدموع، التي ما فارقت عيون الحاضرين في تلك الجلسات العائلية يومًا.

ففي أجواءٍ كهذه وُلِدتُ وترعرعت حتى شبابي، وبعدها رحل أُولئك العظماء. رحلوا في الطريق الذي يمضي فيه كل إنسانٍ. رحلوا ورحلت معهم تلك القِصص، التي عاشوها ومروا بأحداثها يومًا بيومٍ، ولم يبقَ اليوم سوى الذكريات عنهم، وعما كانوا يقُصونه علينا بكل براءةٍ، ونسمعه منهم بكل صدقٍ.

أنا الحفيد الأول لجدي، فجدي هاروتيون دخل العراق مع قوافل المهاجرين الناجين الأرمن، فوُلد له أبناءُ وبناتٌ في العراق، وهم (الجيل الأول)، ثم تزوجوا

فوُلدنا نحن -أحفاده- أيضًا في العراق (الجيل الثاني)، فأنا من الجيل الثاني الذي وُلِدَ في العراق، من بعد ما دخل المهاجرون الأرمن إلى العراق ١٩١٥-١٩١٧م.

ومع الاستمرار بالحياة ومُضِيّ السنين سريعًا، إلا أنَّ ذلك لم يمنع استمرار الموروث المحزن والمؤلم.

الألم الموروث والحنين إلى الوطن، ذلك الوطن الذي سمعنا عنه فقط بآذاننا، لكننا لم نرَه بأعيننا، ولم نطأه بأقدامنا. كان اليه الاشتياق والحنين يزداد ويفيض فينا يوميًا، بالرغم من أننا لم نكن نَمُتّ بأي صلةٍ به، فلم نرَ ذلك الوطن يومًا، ولم نطأه بأقدامنا، لكن وجود ذلك الجيل الأول (جدي وجدتي)، واحتكاكنا اليومي بهما، وسماعنا لقصصهما، خلق فيَّ صورةً متكاملة الأبعاد لذلك الوطن، الذي هاجروا منه، لتلك السهول والمراعي، للجبال والأودية، للمياه والينابيع، حتى للسماء التي عاشوا تحتها. بل وحديثهم اليومي الصادق والبسيط. جُعلنا نتصور كل زوايا ذلك الوطن بعيونهم، كأننا نعيش ونحيا فيه وهو فينا، فحتى بعض الأكلات اليومية، التي كانت جدتي تعدها، كانت أسماؤها غريبةً؛ لأنها كانت أكلاتٌ تُحَضَّر قديمًا في الوطن، الذي أُبعدُوا منه جبرًا.

وكل هذه الأمور، مجتمعةً، أوجَدَتْ فيَّ، خاصةً فيَّ أنا، صفاتٍ، البعض منها ورثتها من خلال جيناتي الوراثية من أبي، وأبي من جدي، والبعض الآخر اكتسبتُها من أجواء العائلة، التي وُلِدتُ وترعرعت فيها، عائلةٍ أرمنيةٍ نقية الدماء، أصالتها متوغلةٌ في القِدَم، ترجع جذورها إلى الأرمن، الذين استوطنوا تركيا الشرقية، فيما بعد الطُّوفان. {بحسب الشجرة العائلية، والدتي أصولها من مدينة (هايوتس تسور) محافظة (فان) أو (وان) - وتقع في شرقي الأناضول، تحدها من الشمال مدينة (أغري) و(دوغوبيازيت)، ومن الجنوب (سيرت) و (هكاري)، ومن الشرق فتحدها دولة إيران - . وأصول والدي من محافظة (فان) أو (وان)، من مدينة (موكس) أو (موك)، والتي تقع في الوقت الحاضر في محافظة فان في تركيا، واسمها الحالي (بهجة سراي)} ...

وكلتا المدينتين - (هايوتس تسور) و (موكس) - في محافظة (فان) أو (محافظة وان التركية الآن). ومدينة (موكس)، تبعد ١١٠كم عن مركز محافظة (وان). حيث وُلد وعاش أجدادي، وازدهرت تلك المدينة بهم عبر العصور.

وقد امتهن أجدادي الزراعة وتربية المواشي، وأعطوا حياتهم جيلًا بعد جيلٍ لتلك الأرض، وهي أعطتهم خيراتها وغلاتها. ثم سُفِكَت دماؤهم على أراضيها، وهُجروا منها قسرًا. فجداول دماء أبنائهم المسفوكة وَضعت ختمًا أبديًا على ترابها، وستظل تلك الدماء تصرخ مطالبةً بالحق المسلوب إلى الأبد.

في بيتنا كان أبواي (وهما من الجيل الأول المولود في العراق) يسقياننا، مع الطعام اليومي غذاءً آخر. يَزرع فينا رؤية ذلك الوطن المسلوب، المسلوب بتضحياتٍ كبيرةٍ. ولعل أكثر ما حاول والداي زرعه فينا هو الحب والحنين إلى ذلك الوطن المغتصب، فإنَّ (وان)، موش، آرداهان، ساسون، باش قالان، هايوتس تسور، موكس...إلخ من المدن والقرى الأرمنية في أرمينيا الغربية التأريخية، حيث فعل والداي المستحيل لكيلا ننسى انتماءنا الحقيقي لقوميتنا الأرمنية، والحقوق الأرمنية المغتصبة، واللغة الأرمنية، والثأر الذي مهما طال الزمن سيُؤخذ حقه يومًا، والوثوق بشكلٍ قطعيّ بأننا سنعود يومًا إلى أرض الوطن.

كان أبي يردد دائمًا هذه العبارة: "سنعود يومًا لوطننا وأراضينا"، هذه العبارة قالها والدي لي، قال: "قالها جدك لي، وأنا أقولها لك، وأنت انقلها لأبنائك، إلى أنْ يأتي ذلك اليوم الذي تتحقق فيه هذه الوصية."

أذكر أن في عام ١٩٨٥م (كان عمري ١٦ سنة وأخي، نوبار، كان في سن ال١٤). كنا ننتهز عطلة أيام الجُمع، لنجلس -أنا وأخي- صباحًا، فيقوم والداي بتعليمنا حروف أبجدية اللغة الأرمنية، ثم يقوم والدي بتشغيل الأغاني الأرمنية الحماسية القومية. وعندما كنا نسأله عن معاني بعض كلمات تلك الأغاني، كان يشرح لنا بإسهابٍ معاني

كلمات تلك الأغاني وأسماء القادة، التي وردت فيها أو أسماء المدن، ويروي لنا قصص البطولة، التي بسببها كُتبت تلك الأغاني الحماسية.

لم يرَ والداي فعليًا تلك المجازر الرهيبة، لكن كانا قد عايشاها معنويًا ونفسيًا، حيث كانا قد وُلِدَا في قرية (هافريزك)، التي أسسها أجدادي الناجون من المجازر العثمانية، بالقرب من الحدود العراقية التركية، بهدف أن تلك البقعة البعيدة، في شمال العراق التي أسسها القائد الأرمني الفدائي (ليفون شاغويان باشا) -أحد القادة الأرمن الشجعان البارزين في تلك الحقبة، هي أقرب نقطةٍ حدودية للعودة إلى الوطن، إلى مدينة فان (وان)، - وعاش فيها هو لسنين طويلةٍ، وأسس فيها مدرسةً أيضًا.

كان جدي، والد والدتي (جوجاغان ميسروب مسروبيان)، مختارًا للقرية منذ أن تأسست، وبقي مختارًا للقرية إلى أن هُجِّرَ هو مع سكان القرية ليلًا، على يد قوات النظام العراقي البعثي آن ذاك في عام ١٩٧٥م.

وكان مؤسسوها الأوائل وسكانها، هم من العوائل والأفراد الأرمن الناجين من المجازر العثمانية البشعة، التي شنها الأتراك ضد الأرمن بغية محوِ وإبادةِ القومية والعرق الأرمني إبان الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٥م.

روى لنا والداي، حيث كانا يقولان بأنَّ العوائل الأرمنية في قرية هافريزك، كانت تجتمع كل ليلةٍ، خاصةً في الصيف. ويتبادل الكبار القصص المرعبة، التي عايشوها أثناء هروبهم، أو أثناء تواجدهم في مدنهم وقراهم، أثناء تلك المجازر البشعة بحقهم.

وكانت النساء يبكين على أثر تلك القصص، التي كانت تُردَّدُ على شكل قصائدَ مغناةٍ، أو على شكل قصصٍ. وكان والداي وباقي أقرانهم من الفتية والشباب، كل ليلةٍ يعايشون أحداث تلك القصص والمآسي، التي كانت تُروى في تلك المجالس.

فكثيرًا ما كنت أسمع أبي يردد أغاني وطنيةً حماسيةً، كلماتها حزينةٌ، وكانت أمي تحني رأسها بالبكاء، وكنت أشعر بأن ما يعانيه والداي من شوقٍ وحنينٍ إلى أرض

الوطن المسلوب، كان يومًا بعد يومٍ يُزرع فيَّ أنا أيضًا. وكان أبي عندما يلاعبنا ويلاطفنا أنا وأخي، يكرر دائمًا هذه المقولة: "هيَّا اضرباني بقوةٍ، لكي تتعلما كيف تضربان أعداءنا الأتراك الأوغاد عندما تكبران."

فكنت أنا وأخي نسأله: "أبي من هم الأتراك؟"

فكان يقول: "إنهم قتلةٌ! إنهم أعداؤنا! ستفهمان ذلك أكثر يومًا ما عندما تكبران."

وكنت قد سمعت ولمراتٍ كثيرةٍ من والدتي، كيف أن الشرطة قد داهمت منزلنا، عندما كنا أطفالًا صغار، وألقوا القبض على والدي، بتهمة انتمائه لحزب (الطاشناغ الأرمني)، وكان للسيد (باركيف مانوكيان) -أحد أصدقاء والدي وجارنا- دورًا كبيرًا في إنقاذ والدي، حيث أسرع يومها وأبلغ أمي بالتخلص من كل المجلات والكتب، التي كانت بحوزتنا في المنزل قبل أن يفتشوا بيتنا. فأسرعت أمي وأتلفت تلك المجلات في التنور على سطح منزلنا. وفي اليوم التالي، عندما صدر قرار القاضي بتفتيش منزلنا، لم يجدوا أي دليلٍ، لكن مع ذلك، سُجن أبي ليومين متتاليين وبعدها أُفرج عنه، (كان هذا في العامين ١٩٧١-١٩٧٢م).

فالجيل الأول الذي عاصر الناجين من الإبادة (آبائهم وأمهاتهم)، كان قد تأثر جدًا بالماضي القريب لهم، فإن نجاة آبائهم وأمهاتهم من تلك المجازر، كان سببًا لكي يُولَدوا ويُمنحوا الحياة، لكن من الجانب الآخر، فقد وُلدوا في ظروفٍ صعبةٍ وفي بلدٍ غريبٍ، وعانوا الفقر والعوز والاحتياج، حيث لم يكن لوالديهم شيئًا من الإرث والغنى، ليتمتع أبنائهم بالراحة، ويشعروا بالأمان على الأقل، فقد بدأ الجيل الأول حياته من الصفر ومن العدم، في بلدٍ غريبٍ، يجهلون حتى اللغة السائدة في المجتمع العراقي. فمثلاً، والدي اضطر للعمل في سنٍ مبكرةٍ لأجل أن يعيل والديْه وإخوته؛ لأنَّ الزراعة لم تكن تجدي نفعًا، وأبواه كانا فلاحَين في قريةٍ شبه نائيةٍ، (هافريزك)، في شمال العراق، فكان دائمًا والدي يردد هذه العبارة: "لولا الهجرة لكانت ظروفنا الآن مختلفةً

تمامًا، فقد خسر أبواي كل شيءٍ: الأراضي، والثروة، والأملاك، عندما هُجِّروا من فان."

وكل مشاعر الأسف والحزن والثأر والحب للوطن المسلوب، حاولوا أن يجعلوها تؤثر في الجيل الثاني، وتترك نفس ذلك التأثير والانطباع الذي شعر به الجيل الأول، الذي كان أبناء أولئك الناجين من تلك المجازر. وطبعًا، نجحوا في بلوغ هذا الهدف.

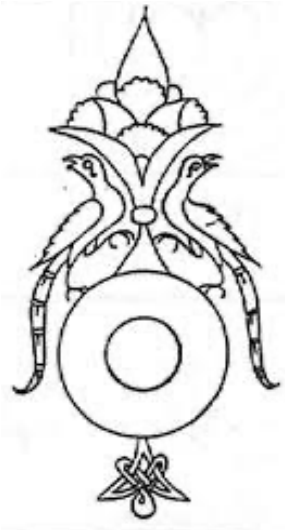

أَحْدَاثٌ وَقِصَصٌ

بين الذكور، أنا الحفيد الأكبر لعائلة هوفسيبيان، وقالت والدتي بأنَّ عمتي الكبرى، كيغانوش، هي من سمَّتني باسم (نوريك)، (نوريك، وهذا الاسم الأرمني له معانٍ كثيرةٌ، منها: الباكورةُ الجديدةُ، القادمُ الجديدُ، البدرُ الطالعُ...إلخ). وبمولدي، كان جدي هاروتيون، الذي كُتب اسمه في السجلات العراقية بأشكالٍ مختلفةٍ، لصعوبة لفظ الموظفين في دوائر الجنسية للأسماء الأرمنية، فقد سُجِّلَ اسمه في بعض الأوراق الثبوتية (آرتين) وفي البعض الأخر (هاروتيون)، وأما اسمه الصحيح فهو (هاروتيون هوفسيب هاروتيون)، واللقب (هوفسيبيان)، (وهو أحد الناجين من مجازر الإبادة الأرمنية)}، يرى فيَّ أملًا ومستقبلًا ونجاحًا في امتداد نسله، هكذا أخبرتني جدتي (يالدوز)، (وهي إحدى الناجيات من الإبادة، أيضًا). حين كنتُ ولدًا يافعًا، كانت تلاعبني وتلاطفني جدتي يالدوز بكلماتٍ كنت في أحيانٍ كثيرةٍ أشعر بأنها مبالغٌ فيها، وفي أحيانٍ أخرى أرى فيها أوصافًا لم أستطع استيعابها. فما هو السبب؟ ولماذا؟ (طبعًا، كان نفس الفعل يجري على جميع أحفادها الآخرون فيما بعد).

ومع تقدمي في العمر، استطعت أنْ أُميز من كل ما كنت أسمع أو أرى، بأنْ عائلتي الكبرى كانت تَرى في عيون أحفادها مستقبلًا ورجاءً وأملًا في العودة إلى وطنٍ، وُلدوا وعاشوا فيه هم يومًا.

لكن رجاء العودة إليه، وأخذ الثأر، والحفاظ على إرث الأجداد، كان كل هذا مرهونًا بالجيل الجديد، لان الجيل الذي وُلد في الوطن الأم، وترعرع فيه لبعضٍ من الوقت، وشرب من مائه، وتغذى على خيراته، وتمتع بجماله، ذلك الجيل كان قد أصبح كهلًا، منهكًا، ومتعبًا، بالكاد استطاع أنْ يشق طريقه من خلال المجازر ويخلص نفسه، من سيف ورصاص العدو، حاملًا جيناته الوراثية النقية، التي استطاع إيصالها إلى

بقعة أرضٍ آمنةٍ، ليبدأ من جديدٍ بإنشاء نسلٍ يرى من خلاله أملًا ورجاءً في المستقبل، ومع صرخة كل مولودٍ جديدٍ يولد تحت سقف بيته، كان يشعر بأنه نجح في استمرارية الحياة والانخراط بها، وأفشل خطة العدو في تحقيق أجندته في إبادة الجنس الأرمني، ويرى في عيون المولود ابتسامةً وفرحًا ورجاءً، طال انتظاره وهو الرجاء في تحقيق الهدف بالعودة إلى موطن الأجداد.

في كل مساءٍ بعد إنهاء واجباتي المدرسية، كنت أجالس جدي وجدتي، ومهما تحاورنا في مواضيعَ مختلفةٍ، كان لابد أنَّ الحديث يدور ويرجع إلى نفس القصص، قصص الماضي الذي لن يُنسى، وكنت أحيانًا أنا من يقوم بطرح بعض الأسئلة عن أحداث الماضي، التي جرت في حياتهما.

كان جدي في أكثر الأحيان يجلس صامتًا شامخًا على الأريكة، بينما كنت أنا أجلس بالقرب من جدتي على السجادة، وأقوم بطرح أسئلةٍ كثيرةٍ عليها. كان جدي في الغالب يصمت؛ لأنه كان يعرف أنَّ جدتي ستجيب بشكلٍ صحيحٍ؛ لأنها قد عاشت ومرت بتلك الأحداث، التي كنت أحاول الاستفسار عنها، والتي هي لم تنسَها يومًا، بالرغم من مُضي الأيام، وتراكم الأحداث في ذاكرتهما. وبينما تقص عليَّ تلك الأحداث: كيف كانوا يعملون في الحقول، كيف كانت مع أخوَيها تلعب في البستان، كيف كانوا يعيشون، كيف كانوا يمضون الشتاء...إلخ).

كانت تتلألأ في عينيها قطرات الدمع، وتهمر مع كلمات أغنياتٍ حزينةٍ، كانت ترددها بصوتٍ منخفضٍ، ملَأَها الشوق والحنين، الحنين لمن؟ الحنين لأرضٍ وُلدَت فيه وعاشَت فيه اثنا عشر سنةً من عمرها مع والديها وأخويها.

لم تكن جدتي تعرف القراءة والكتابة. لم تكن مثقفةً أبدًا. كانت تتكلم اللغة الأرمنية بلهجةٍ قديمةٍ، لهجة قرى فان، وبما أنها كانت الوحيدة، التي نجت من بين كل أفراد قريتها، فهي إذًا الوحيدة التي كانت قد حافظت وتكلمت بتلك اللهجة أو اللكنة الأرمنية القديمة الخاصة.

كانت جدتي امرأةً قرويةً قصيرة القامة وقوية، لم تتلقَ أي نوعٍ من أنواع الثقافة ولا العلوم. لم تكن تعرف الحساب، ولا الرياضيات، ومع محاولاتها الكثيرة، إلا أنها لم تستطع تعلم التكلم باللغة العربية أبدًا. لم تكن تعرف أسماء الشهور، ولا أسماء الأيام، ولم تكن تعرف قراءة الساعة ومعرفة الوقت، لكنها كانت امرأةً أرمنيةً صلبةً كأحجار الجبال الأرمنية، التي ترعرعتْ بينها. وكانت مدبرة منزلٍ لا مثيل لها، حيث كانت تقول: "وأنا حاملٌ في الشهر السادس، كنت من الفجر إلى المساء بجردلين وبهاتين اليدين، أنقل الماء ذهابًا وإيابًا من البئر إلى حقلنا، لسقي الحنطة ليكون لدينا دقيقًا لصنع الخبز."

كانت جدتي امرأةً عظيمةً، عانت ما عانته من ويلات الإبادة والهجرة والحزن والخوف. ثم بعد ذلك عانت الحرمان والفقر والتعب والعناء لتربية أبنائها وبناتها.

وإلى هذه اللحظة، أتذكر كيف كانت والدتي، من على كرسيها أمام ماكينة الخياطة، تقطع حديث وبكاء جدتي قائلةً لها: "يكفي لا تكمّلي الحديث، لا تخيفي الولد، فهو سيخاف...!"

فماذا كان ذلك الحديث المخيف؟ ماذا كانت قد رأت جدتي؟ ماذا كان قد حدث؟

أَمْرٌ غَرِيبٌ وَجَدِيدٌ

قال لي جدي يومًا: "كان لي جدًا اسمه هاروتيون، وكان الأكراد يطلقون عليه لقب (مغسي هاروتيون)." وعندما سألت جدي: "ما معنى كلمة (مغسي)؟" قال لي: "هذه الكلمة معناها (مُقَدَّسِي)؛ لأنَّ جدي كان قد زار القدس."

وسألته: "وأين كنتم تسكنون؟ ومن كان هؤلاء الأكراد أصدقاؤكم؟"

صمت جدي للحظاتٍ، ثم استلقى على الأريكة وتنهد بعمقٍ، ثم قال: "آه، يا بنيَّ... إنها قصةٌ طويلةٌ، ما زلتَ صغيرًا لتستوعبها، ربما أبوك سيخبرك يومًا بتفاصيلها عندما تكبر." كان كل شيء يؤجَّل حتى أنْ أكبُرَ، لكن في قرارة نفسي، عندما كنت أجمع بعض المقتطفات من الكبار في عائلتي، أو أرى الدموع في عيونهم، أو أسمع بعض الأغاني أو الشتائم في بعض الأحيان، كنت أشعر بأن هنالك حلقاتٌ ناقصةٌ في كل ما يدور، ويجب أنْ أتعرف على تلك الحلقات الناقصة، لكن متى وكيف؟

في إحدى أيام الربيع، بينما كانت جدتي يالدوز جالسةً في حديقة منزلنا تقوم بالنظر إلى الشجيرات التي فيها، سألتها قائلًا: "ما معنى اسمك يا جدتي؟" فابتسمت قائلةً: "كنت بنتًا حُلوةً جدًا وجميلة الملامح، فسماني والدي باسم يالدوز، وهو اسمٌ شهيرٌ معروفٌ لقصر يلدز في تركيا". (وهو قصر عثماني يقع في إسطنبول، تركيا. بُنِيَ القصر الجميل في نهاية القرن الـ١٩، وكان مقرًّا للسلطان العثماني، والحكومة العثمانية حتى ١٩٢٢م).

كان جوابها غريبًا جدًا جدًا بالنسبة لي؛ لأنه كيف عرف والد جدتي بهذا القصر؟ ولماذا يسمي ابنته باسم قصرٍ في تركيا؟! ولا يسميها باسم أي شيءٍ آخر جميلٍ في أي بلدٍ آخر؟

لماذا تركيا؟

لماذا كل الأحداث التي يتحدث عنها أفراد عائلتي الكبار تدور وتدور في حلقة شبه مغلقةٍ تنتهي بتركيا أو بالأتراك؟!

ثم نظرتْ جدتي إلى شجرة التين، التي كانت في فناء حديقة منزلنا، وقد بدأت تورّد أوراقها، وقالت: "هذا المنظر يذكرني بأشجار بساتيننا،

آه...آه ذلك البستان وتلك الحقول الشاسعة."

فسألتها: "هل كنتِ تسكنين في قريةٍ؟"

قالت: "نعم، لقد وُلدتُ في قريةٍ صغيرةٍ تُدعى (قونيس) أو (كونيس). كان فيها ١٥ منزلًا، عشرةٌ منها بيوتٌ أرمنيةٌ، وخمس عوائلَ كرديةٍ، بالرغم من بعض التحفظات الدينية، كنا نعيش مع بعضنا البعض بمحبةٍ، وتواصلٍ اجتماعيٍّ، وكانت العلاقات بين الرجال علاقات محبةٍ، وصداقةٍ، وتبادل خبراتٍ زراعيةٍ رائعةٍ جدًا جدًا.

كان لنا بستانًا كبيرًا مليئًا بأشجار الخوخ والتين." وقالت جدتي: "كنت بنتًا صغيرةً، وكانت الأشجار تمتلئ بالثمار، ومن كثرة وفرتها كانت تتساقط وتملأ سواقي المياه، وكان عملي وعمل أخوَيَّ الصغيرَين يقتصر على تنظيف تلك السواقي من الثمار المتساقطة، لتسهيل جريان الماء فيها لسقيها".

وأتذكر أنَّ "بالقرب من باب منزلنا كان هناك نبعَ ماءٍ، كنا نجتمع نحن الفتيات الأرمنيات والكرديات، ونملأ جرارنا بالماء ونحن نتناقل الأحاديث المختلفة."

وسألتُ جدتي قائلًا: "وأين كانت تلك القرية؟" تنهدت جدتي وقالت: "في الوطن الأم".

فسألتها متعجبًا: "وأين هو هذا الوطن الأم، الذي تتحدثين عنه؟!"

فقالت: "في تركيا الآن".

كان استغرابي وحيرتي يزدادان كلما كنت أسمع هذه القصص؛ لأنني كنت صغيرًا، ولا أستطيع أن أربط الأمور والحقائق ببعضها البعض. فكانت جدتي يالدوز تعيش في جوٍ مختلفٍ تمامًا. كنت أشعر بها، فبينما تقف في وسط حديقتنا الصغيرة، كانت تنظر للأشجار وتتنهد، وتتمتم بكلمات أغنيةٍ بصوتٍ منخفضٍ، وتمسح بغطاء رأسها دموعها. كانت تتخيل نفسها في بستان أبيها، الذي فارقته منذ أكثر من ستين سنةٍ، تاركةً فيه الذكريات الجميلة، كان الحنين إلى وطنٍ هجرتُهُ قَسرًا يعصر قلبها...

حتى عندما كانت تأكل الفواكه، كانت لا تشعر باللذة، فكنت أسمعها تقول بشوقٍ: "آه... أين تلك الفواكه والثمار، التي كنت أقطفها من بستاننا؟ كان طعمها مختلفًا، كانت ريانةً أكثر من أي ثمرٍ أكلته طوال هذه السنين...!"

كان في أعماقها ألمًا وحصرةً وحنينًا وشوقًا، كانت بالكاد تستطيع أنْ تكفكف دموعها؛ حيث أصبحت كبيرةً في السن وثقلت حركتها الآن، لكن ذاكرتها كانت فعالةً ونشطةً جدًا. كانت تتذكر كل شيءٍ وكل حدثٍ. فيا ليت الأحداث التي كانت تتذكرها كانت أحداثًا سعيدةً أو ذكرياتٍ سعيدةً! كان كل ما تتحدث عنه ممزوجًا بالألم والحصرة والدموع. كيف لا؟ وقد فقدت في سنٍ مبكرٍ أمها وأباها ثم أخويها.

كيف لا؟ وقد شاهدتْ مناظر تقشعر لها الأبدان.

كيف لا؟ وقد شاهدتْ وشهدتْ بإبادة شعبٍ، بلا رحمةٍ.

كان جدي على عكس جدتي، فهو كان نوعًا ما متعلمًا بالفطرة والتجربة من الإرث العائلي، وكان يحمل حكمةً وفطنةً وتجربةً يُضرب به المثل.

فقد حدثني والدي قائلاً "كانت القبائل الكردية وكبار المزارعين تأتي الى جدي من قرًى بعيدةٍ؛ ليستشيروه في الأوقات الصحيحة لتزاوج المواشي، والخيول، وكانوا يسألونه ليراقب النجوم ويعلمهم بمواعيد الحراثة، ومواعيد زرع الحنطة والشعير، ومواعيد لم الغلات قبل حلول الشتاء. كانوا يستشيرونه في أنواع البقر والثيران وأجناسها، التي يمكن أن تتزاوج وتنتج نسلًا قويًا".

كان جدي ذا حكمةٍ في معرفة الأوقات والطرق بمراقبة النجوم. كان قد اكتسب هذه الخبرة الواسعة منذ شبابه من أبيه وجده.

وفي أحد الأيام بينما كنت أُمسك بيده أثناء سيرنا في الحديقة، سمعته يغني بصوتٍ منخفضٍ، وكانت الكلمات التي يرددها في الأغنية غير أرمنيةٍ، ولا عربيةً. وبعد انتهاء الأغنية، التي كانت بلحنٍ ثقيلٍ،

سألتُ جدي قائلًا: "جدي؟"

قال لي: "نعم، ماذا تريد؟"

فقلت له: "ما هذه اللغة، التي كنتَ تغني بكلماتها؟"

قال لي: "هذه الكلمات هي باللغة التركية والكردية".

فسألته: "ومِن أين تعلمتَها...؟"

صمت لبرهةٍ ثم قال: "تعلمتها من والدي عندما كُنا في الوطن".

فقلت له: "أين كان هذا الوطن؟"

فقال لي: "وطننا بعيدٌ... بعيدٌ جدًّا من هنا. وطننا الذي وُلِدنا فيه، وعاش أجدادنا فيه في فان." (أو وان، وهي إحدى المحافظات الشرقية في تركيا اليوم).

طبعًا، لم أفهم ما قصد جدي، فاستدرجته لسؤالٍ آخر. لعلي أفهم الجواب! فسألت جدي قائلاً: "وعن ماذا تتحدث هذه الأغنية؟" فأجابني: "تتحدث هذه الأغنية عن الفدائي، الذي يعيش في الجبال".

فسألته: "ومن هو الفدائي؟ ولماذا يعيش في الجبال؟"

فقال: "هو رجلٌ مثلنا، رجل قِتالٍ وحربٍ، يخرج ليعيش هاربًا في الجبال والوديان؛ ليقاتل الأعداء -أعداء الوطن-، ولا يكون له بيتًا ولا عائلةً؛ لأنه معرضٌ للقتل في أية لحظةٍ؛ هو نذر نفسه فداءً للوطن ولشعبه".

فسألته قائلًا: "وهل كان هنالك فدائيون أرمن عندما كنتَ في الوطن؟"

فقال لي جدي: "نعم، كان هنالك فدائيون أرمن أشداء، لولا وجودهم يومًا الى جانبنا، لما استطعنا النجاة، فنحن مديونون لهم بالكثير؛ فقد أنقذونا بثمنٍ باهضٍ، حيث صدوا رصاصات الأعداء بصدورهم من أجل أن ننجو نحن وعوائلنا".

فسألت جدي: "متى حدث هذا؟"

فتنهد جدي وقال: "آه... كان ذلك في عام ١٩١٥م".

ثم سكت جدي ولم أشأ أن أكثِر من تساؤلاتي؛ لأنني وإنْ كنت في الخامسة عشر من عمري، لكني لم أكن أفهم كل ما كان يقوله جدي بعد...

فقلت له: "عندما أكبر يا جدي، أريد أنْ أكون فدائيًا".

فضغط جدي بقوةٍ على يدِي، التي كان يمسكها وقال لي: "لو تأتي الفرصة، أنا وأبوك سنذهب؛ لنقاتل ونرجع الوطن الذي أُحْتُلَّ، ونأخذ بثأر من قتلوهم من عوائلنا. أما أنت، فأنت ما زلت صغيرًا يا بني، لكن سيأتي ذلك اليوم، وهو قريبٌ. إنْ لم أرَه أنا بعينَي، فوالدك سيراه. وإنْ لم يَعِشْ والدك ليراه، فأنت ستراه وتحققه. وإنْ لم ترَ أنت أيضًا ذلك اليوم، فتوصي أبنائك أنْ يهتموا في تحقيقه مهما كان الثمن".

(فكان يقصد جدي: أن مهما طال الوقت وتعاقبت الأجيال، لابد أنْ نُرجِع وطننا المسلوب (فان)، والأراضي الأرمنية الأخرى، التي اغتصبها الأتراك منا).

فقلت له: "نعم". فهي كانت الكلمة المناسبة في تلك اللحظة، هكذا شعرت من دون وعيٍ.

ثم قال لي جدي: "سيأتي اليوم الذي ترجع للوطن، إلى المدينة التي وُلدتُ وعِشتُ فيها أنا وأجدادك، إلى مدينة (موكس) أو (موك) التابعة لمحافظة وان. (اليوم، الاسم الحالي للمدينة هو (بهجة سراي)، إحدى قرى محافظة وان التركية اليوم). هناك، على إحدى سفوحها، ترقد عظام أجدادي لأكثر من ألفي عامٍ. وهناك الأرض، التي سقيناها بعرق جباهنا أنا وأجدادي. هناك الأرض، التي وُلدنا وكبرنا عليها. هناك البيت، الذي تعاقبت عليه عائلتنا جيلًا بعد جيلٍ. هناك البئر، الذي شربت منه أنا،

وآبائي وأجدادي. هناك هويتنا، وهناك كياننا، هناك وُلِدنا، وهناك يجب أنْ نموت؛ لترقد عظامنا إلى جانب عظام آبائنا. وغنيمةٌ تنتظرك هناك؛ لتخرجها بيديك، فهي ميراثك".

لم أفهم ما قصد جدي، ولم أفهم ما قاله بالضبط، لكن كان كلام جدي ينبر على أنه بالرغم من عيشه في العراق الحبيب، إلا أنه بكل وجدانه وكيانه كان يعيش في عالمٍ آخر، عالمٍ يفوق كل الحدود،

كان قضاء موكس المعروف حاليًا بـ(بهجة سراي)، آنذاك، مدينةً ذات غالبية سكان من الأرمن، وكانت مدينةً عريقةً جدًا في محافظة وان أو فان. هناك، في مدينة موكس، في أحد ليالي شتاء عام ١٨٩٨م، وُلِد جدي في إحدى منازلها، فسماه جده (كبير الأسرة) على اسمه (هاروتيون)، ومعنى اسمه هو (قيامةٌ مِنَ الموتِ)، حيث كان جده هاروتيون قد زار القدس للحج، فكان معروفًا بين أقرانه وأقاربه بكنية (موخسي هاروتيون)، أي: (الحاج هاروتيون).

جدي هاروتيون، الذي سُجِّل اسمه خطأً في الوثائق العراقية بـ(ارتين) و (هاروتيون) و(هارتين)، عاش طفولته وصباه، وجزءًا من شبابه على أرض وطنه -موكس-، وترعرع هناك، وكانت له خبرةً كبيرةً في مراقبة النجوم، والاستدلال على الطرق والاتجاهات، ومواسم الزراعة والحصاد، وأوقات هطول الأمطار عن طريق مراقبته للنجوم.

وكان قد حصل على تلك الخبرة منذ صغره من والده وجده. كان يومها جدي يمضي معظم الأوقات، في فصلَي الربيع والصيف في الجبال، مع أقرانه في رعاية المواشي. وفي مواسم الزراعة، كان مع والده (هوفسيب) وأخيه (آبراهام)، الذي كان يصغره بسنتين، ومع باقي أفراد العائلة المكونة من ١٤ شخصًا: (الجد والجدة، الأب، والأم، وثلاثة عماتٍ شاباتٍ، وأربعة أخواتٍ وثلاث أولادٍ)، (لم ينجُ منهم أثناء مذابح الأرمن، التي جرت على يد الأتراك عام ١٩١٥م، إلا جدي وأخويه: آبراهام، وبوغوس)، يعملون في حقلهم في زراعة القطن والحنطة. وكان لهم بستانًا آخر للأشجار المثمرة

مع عددٍ كبيرٍ من المواشي. وكانت عائلة جدي معروفةً جدًا بين الأرمن والأكراد، والسكان الآخرين في محافظة فان (وان) بأسرها، لا بل كان بيتهم محطة إرشادٍ، حيث كان يتوجه لهم تقريبًا كل مزارعي المنطقة؛ لاستشاراتهم في أمراض حيواناتهم، أو أوقات تزاوجها، وليعرفوا منهم الأوقات الصحيحة للزراعة أو للحصاد. (حتى إنَّ جدتي التي كانت عروسًا في بيت جدي الكبير، أخبرتني أنَّ في أحيانٍ كثيرةٍ، كان يطرق الناس أبواب منزلهم ليلًا، يستدعون ويأخذون جدي أو أباه أو جده؛ لكي يساعدوهم في عملية ولادة مواشيهم؛ كانوا أصحاب خبرةٍ عاليةٍ في هذه المجالات).

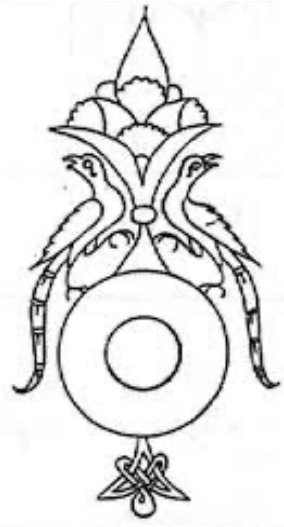

ألفصل الثاني

نَغَمَاتُ رَثَاءٍ

أمضيت طفولتي، وصبايَ، ومطلع شبابي، في العيش مع جدي وجدتي، اللذين كانا من الجيل الأخير، الذي ترك أرض الوطن المسلوب. ذلك الوطن الذي حمَّلهم رسالةً كثيرة الصفحاتِ، حبرها الدم، وكلماتها الألم والدموع.

فقد عاصرتُ أولئك العَلَمَيْن، اللذَيْن كانا شاهدا عيان على تلك المجازر المروعة، التي مرا من خلالها، وحملا تَرِكتها المؤلمة في قلبيهما، ونقلاها للجيل القادم. أولئك الأيتام والأرامل، الذين نجوا من هول تلك المذابح البشعة، وتحملوا مبكرًا أعباء الحياة وآلامها.

لم تكتب لهم -الجيل الناجي- الظروفُ فرصةً لنيل التعليم في المدارس، إلا أنهم بالرغم من جهلهم، استطاعوا ببساطتهم وعفويتهم حياكة قصص الأرض، والوطن المسلوب بأساليبَ مختلفةٍ محاولين صياغتها، وتجسيدها، وتخليد ما شاهدوه وشهدوا عليه من ظلمٍ، وقسوةٍ، وكره الإنسان لأخيه الإنسان، بطرقٍ مختلفةٍ، حتى وإنْ كانت بدائيةً.

فعبَّروا عن المآسي والأحزان، التي مرت عليهم بأشكالٍ متنوعةٍ، حتى إنهم ابتدعوا أُسلوبًا قصصيًا روائيًا غنائيًا، وغسَّلوه بالدموع والونين والحنين. وقدموه للأجيال الأخرى؛ ليشعروا بهول ما رأوه بأعينهم من إبادةٍ، وقتلٍ، واغتصابٍ وتهجيرٍ قسريٍ.

كان جدي ذا صوتٍ جهورٍ وحزينٍ. وكان بارعًا في تصوير الأحداث المرئية الواقعية بشكلٍ قصصيّ غنائيّ رثائيّ. فكان، (كما أخبروني)، منذ شبابه يجتمع كل مساءٍ مع أهل القرية، قرية هاوريزك {وهي قريةٌ أرمنيةٌ تشكَّلت في عام ١٩١٧م، أسسها الباشا

ليفون شاغويان، بعد أنْ نَقل المهاجرين الأرمن الناجين من مجازر العثمانيين، الذين دخلوا العراق، وخيموا في مخيم (نهر عمر) في جنوب العراق، إلى تلك البقعة من أرض شمال العراق القريبة من الحدود العراقية التركية، والقريبة تحديدًا من محافظة (وان التركية الآن)؛ ظنًا منهم بأنهم من هناك سيستطيعون بسهولةٍ من عبور الحدود، والعودة إلى موطنهم (فان أو وان). لكن، يا للأسف! فإنه لم يتحقق ذلك الحلم}.

فكان جدي يجتمع حوله، أقرانه، ويجلس مغنيًا وراويًا لهم أهوال المجازر، التي مروا بها جميعًا. فكان غناؤه رسالةً رثائيةً موجهةً للجيل الثاني، أي أبنائهم وبناتهم، الذين وُلدوا في العراق.

فكان يدعم و يعزز بأُسلوبٍ قصصيّ روائيّ غنائيّ حزينٍ ما يسمعه ذلك الجيل الجديد من قصص الإبادة، من شفاه آبائهم وأمهاتهم الناجين من تلك المجازر.

أولئك الأيتام والأرامل، الذين لم يشاهدوا فلمًا سينمائيًا يومًا ما، لكنهم رأوا وشاهدوا ما لم يره أو يشهده أي إنسانٍ، على شاشات السينما من أفلام الرعب والقتل والدم.

أولئك الآباء والأمهات، الذين لم يقرؤوا كتابًا يومًا ما في حياتهم، لكن قصوا على أبنائهم وبناتهم وأحفادهم أحداثًا لم يقرأها أحدٌ عنها في كتابٍ أو قصةٍ من تأليف بشرٍ.

فهل كنتُ محظوظًا يوم سمعتُ شهاداتهم؟ فإنني سمعتُ، ورسمت في خيالي وفق ما سمعت من مشاهدَ ومناظرَ منقولةٍ نصًّا، من شفاه وعيون شهودٍ أحياءَ عايشوا فقط الجزء مما أصابهم من ذلك الحدث المهول، مجازر الأرمن على يد العثمانيين.

عندما كان جدي يجلس منعزلًا، كنت أسمعه يغني بصوتٍ منخفضٍ شحيحَ مواويلَ رثاءٍ ذا نغمةٍ حزينةٍ. وأما الكلمات، فبالكاد كنت أسمعها من دون أنْ أفهمها؛ لأنها لم تكن باللغة الأرمنية أو العربية، كنت أتضايق عندما كنت أسمعه يردد نغمات الرثاء تلك، فكنت شابًّا في مقتبل ربيع العمر، وكنت أستَهوي النغمات الأكثر شيوعًا في ذلك الوقت.

لكن في ليالي الشتاء الباردة، وأمسيات الصيف العليلة في بغداد، بينما كانت العائلة كلها تجتمع، كان جدي (هاروتيون) أو (آرتين) ينتهز الفرصة ويبدأ بالغناء. كان يغني لنا نحن -أبنائه، بناته وأحفاده حفيداته وزوجات أبنائه الثلاث-، يغني بصوته الجهور الصداح الجميل، أغنياتٍ من تأليفه وتلحينه، كانت حزينةً جدًا، كان يؤديها باللغة الأرمنية، لكن بلهجة أهل قرى فان (وان).

وكان كل أفراد العائلة يجلسون، ويستمعون لذلك الرثاء الأصيل، متأثِّرين بالمفردات واللحن والأداء الأصيل. وكانت دموعهم تنهمر، حتى وإنْ كانت بعض الكلمات المنطوقة لم تَعد تستعمل الآن بعيدًا عن الوطن، لكن ذلك لم يكن عائقًا للحيلولة دون فهمٍ شاملٍ لمضمون الأغنية؛ لأن الكل كان يعرف معاني تلك الكلمات، حتى وإن لم تكن تستخدم في المحادثات اليومية.

كان جدي يؤدي تلك القصص المغناة وهو مملوءٌ بحزنٍ تامٍّ. كيف لا؟ وهو شاهدٌ على كل ما جرى، إبان تلك المجازر، التي نجى منها بأخويه بأعجوبةٍ، فشخصية جدي ومن يكون وما مر به كانت سببا كافيًا لتطفي جوًّا من الجدية والواقعية على مسامع المستمعين إليه...

فماذا كان يروي ويقص جدي من خلال تلك المراثي؟

عن ماذا كان يغني جدي مرةً باللغة الأرمنية، ومرةً باللغة الكردية، التي تعلمها في الوطن المسلوب؟

لماذا كانت أغاني جدي تجعل النساء يبكين، والرجال يهزون رؤوسهم حزنًا، ويمزجون دموعهم مع كؤوس المسكر...؟

عن هذه سألت يومًا جدتي وقلت لها: "يا جدتي... ماذا يقول جدي في هذه الأغنية، التي تجعلكم تذرفون الدموع؟"

فتأوهت جدتي، وأحنت رأسها لِلُحَيْظَةٍ، ثم قالت بصوتٍ حزينٍ:

"كلمات أغنية جدك تقول:

مَرَّ ٱلسُّنُونُو هٰذَا ٱلْعَامَ مِنْ فَوقِي صِدْفَةً،

فَوَجَدَنِي فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ،

فَتَسَاءَلَ مُتَعَجِّبًا وَقَالَ: <<أَيَا صَاحِبِي، مَاذَا تَفْعَلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ٱلْغَرِيبَةِ؟

كَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هُنَا؟

أَيْنَ قَطِيعُ خِرَافِكَ؟

أَيْنَ أَفْرَادُ عَائِلَتِكَ ٱلْكَبِيرَةِ؟

لِمَاذَا هَجَرْتَهُمْ وَجِئْتَ إِلَى هٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ٱلْغَرِيبَةِ؟>>

فَأَنَحْتُ لِلسُّنُونُوِّ وَقُلْتُ لَهُ بَاكِيًا:

<<آهِ... يَا صَدِيقِيَ ٱلْقَدِيمَ، أَنَا لَمْ آتِ إِلَى هُنَا طَوْعًا؛ فَقَدْ طَرَدُونِي قَسْرًا.

قَتَلُوا عَمَّاتِي ٱلثَّلَاثَةَ طَعْنًا بِٱلسَّكَاكِينِ. أَمَّا أَخَوَاتِي ٱلثَّلَاثَةُ، فَذُبِحْنَ بِٱلسِّكِّينِ أَمَامَ أَعْيُنِ أُمِّي وَأَبِي. ثُمَّ شَقُّوا بَطْنَ أُمِّي لِنِصْفَيْنِ. وَتَحْتَ أَرْجُلِ ٱلْخُيُولِ قَتَلُوا إِخْوَتِي ٱلصِّغَارَ مَعَ أَبِي...

يَا صَدِيقِي، لَا أَعْرِفُ عَلَى مَنْ أَبْكِي؟ وَمَنْ أَرْثِي؟

أَعَلَى عَائِلَتِي، أَمْ خَوَالِي وَعُمُومَتِي وَأَقْرِبَائِي؟

فَلَا تَلُمْنِي لِأَنَّنِي هُنَا...

لَمْ يَعُدْ لِي مَكَانًا، وَلَا وَطَنًا، لَمْ يَعُدْ لِي بَيْتًا، لِتَبْنِيَ عُشَّكَ على سقفه.

فَأَخْبِرْنِي يَا صَدِيقِي، يَا سُنُونُو، هَلْ زُرْتَ ٱلْحُقُولَ هَذَا الْعَامَ؟

هَلْ وَرَّدَ ٱلسَّوْسَنُ هُنَاكَ؟

هَلْ أَزْهَرَ ٱلْخَوْخُ وَٱلتُّفَّاحُ؟

هَلْ رَأَيْتَ جُثَثًا عَلَى ٱلطَّرِيقِ؟>>

فَقَالَ ٱلسُّنُونُو: <<كُلُّ شَيْءٍ كَمَا هُوَ، مَا زَالَ ٱلرَّبِيعُ يَأْتِي، وَتُزْهِرُ ٱلْحُقُولُ...

لَكِنَّ مَنْ كَانُوا يَقْطِفُونَ ٱلزُّهُورَ، هُمْ أَشْلَاءٌ مُتَنَاثِرَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ...

لَا تَيْأَسْ يَا صَدِيقِي. اِبْنِ بَيْتَكَ، وَأَوْقِدْ سِرَاجَكَ؛ لِأَنَّهُ لَابُدَّ أَنْ تَعُودَ...
سَتَعُودُ إِلَىٰ بَيْتِكَ، وَأَرْضِكَ، وَوَطَنِكَ>>...
فَقُلْتُ لَهُ: <<آهُ... كَمِ ٱشْتَقْتُ لِذٰلِكَ ٱلْوَطَنِ!>>

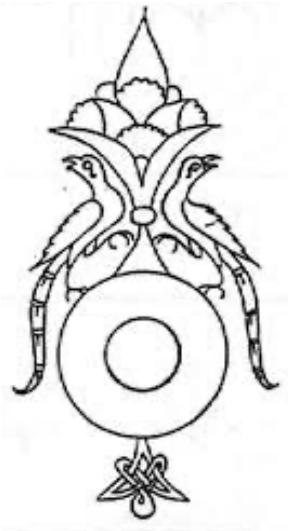

شِتَاءٌ لَا يَنْتَهِي

في نهاية شتاء عام ١٩١٥م، كان جدي هاروتيون (آرتين) قد بلغ سن الـ١٧، وكان هذا هو سن الزواج للذكور في ذلك الزمن؛ لذا قررتْ عائلته وبدون الرجوع له أنْ تجد عروسًا مناسبةً له.

وكان بحسب تقاليد ذلك الزمن، السيدة الأكبر في الأسرة هي من تجد البنت المناسبة، التي تتوافق مع احتياجات الأسرة.

وكان سن زواج الإناث يبدأ من عمر الـ١٢ سنة؛ لذا كان عمر البنت التي ذهبوا لِخِطبَتِها له، أي (جدتي)، يوم تزوجت ١٢-١٣ عامًا، كان اسم جدتي (يالدوز)، وكان اسم أبيها (سركيس)، وكان لها أخوين صغيرين: هاكوب وسركيس. فروت لي جدتي عن ماضيها قائلةً:

"كنا نسكن في قريةٍ اسمها (قونيس) أو (كونيس)، كانت قريتنا بقعةً من جنة الله على الأرض، أرض خيرٍ وبركةٍ. كانت أشجار الفواكه المختلفة، تنتشر بكثافةٍ في بساتيننا وكانت مثمرةً لدرجةٍ أننا كنا نقطف الثمار، ونقدمها كعلفٍ لأغنامنا وبقرنا. كانت قريتنا مليئةً بينابيع المياه الصافية العذبة، وكان إحدى تلك الينابيع تنبع مياهه من وسط بستاننا، وتجري مياهه فيه متلألئةً تحت ضوء الشمس، وكنا مكتفين ذاتيًا بكل أنواع الخيرات.

وكنت أنا وأخواي الصغيران: هاكوب وسركيس، طوال الربيع واصيف نعمل اليوم كله ونلعب ونمرح في تلك المروج والبساتين، كنت أحيانًا أتصور أنَّ هذه هي الجنة الحقيقية.

وأما الشتاء فكان قاسيًا جدًا، كنا نقضي ستة اشهر متتالية في المنزل دون خروج منه حيث كان الثلج يعوا حتى أبواب منازلنا، وكذلك مواشينا تبقى في الحضائر طوال الشتاء.

كان عدد المنازل في قريتنا ١٥ منزلًا فقط، ١٠ بيوت أرمن، وهم بيوت عمومتي وبيوت خوالي، وباقي البيوت كانت للأكراد، وهم كانوا رعاة مواشينا يترحلون ويتغيرون بين عامٍ وآخر، وكانت بيوتهم بعيدةً عن بيوتنا بعض الشيء، ومع ذلك كانت تجمعهم برجالات القرية علاقة عملٍ. كنا عائليًا مع أقاربنا نعمل في رعاية بساتين الخوخ والعرموط والجوز، التي كنا قد ورثناها منذ أجيالٍ عديدةٍ.

وفي أحد أيام الخريف قبل الظهر، توقف بباب منزلنا حمار امرأةٍ عجوزٍ، فأسرع والدي للترحيب بها، ثم ساعدها لتنزل من على ظهر مطيتها، فنزلت ودخلت إلى بيتنا كضيفةٍ لا نعرفها...

وما إنْ استراحت قليلًا وتناولت الطعام والحليب، اتضح أنَّ ضيفتنا قد جاءت لتخطبني لحفيدها، ابن ابنها (كانت العادة أن كبار السن في العائلة هم الذين يتقدمون لخطبة العرائس)، فرفض والدي طلبها مباشرةً ولم يقبل فكرة زواجي، وقال: <<ابنتي يالدوز صغيرةٌ جدًا... لا تعرف أنْ تقوم بالواجبات المنزلية، كيف أقوم بتزويجها؟>> (قال هذا؛ لأنه كان يحبني حبًا شديدًا، ولم يرغب أنْ أترك المنزل...).

لكن المرأة العجوز قالت له متسائلةً: <<هل تعرف ابنتك كيف تنظف سواقي المياه؟>>

فقال أبي: <<نعم، بالطبع تعرف>>.

فردَّت على والدي وقالت: <<هذا يكفينا، نحن بحاجةٍ ليدٍ عاملةٍ أخرى في بستاننا مع بناتي>>.

فبالرغم من محبة أبي لي، إلا أن التقاليد السائدة كانت تقتضي بتزويج الفتيات في وقتٍ مبكّرٍ.

وأيضًا، احترام أبي لجدة زوجي بشكلٍ كبيرٍ، (فلم يكن أبي يرفع رأسه لينظر في وجه جدة زوجي، مع أنَّ كل وجهها كان مغطًى بخمارٍ أبيض، لا يظهر من وجهها إلا العينين).

وأما أمي فلم تتكلم كلمةً واحدةً، ولم تسأل عن أي شيءٍ، كانت مهتمةً فقط بإعداد الطعام للضيفة والعمل على راحتها. و لم يسألوها حتى من تكون إلى أنْ عرَّفت الجدة عن نفسها قائلةً: <<أتعرف يا بني، من أكون أنا؟>>

فرد والدي وقال لها: <<كلا...>>.

فقالت: <<أنا زوجة (مغسي هاروتيون) من مدينة موكس، جئت كل هذه المسافة؛ لأطلب يد ابنتك لحفيده أبن ابني>>.

وعندما سمع أبي بهذا الاسم والنسب المعروف، وافق على الفور، من دون أن يسألني أو يسأل والدتي، فقال لجدة زوجي:

<<يا أماه، أتيتِ كل هذا الطريق لتطلبي يد ابنتي لحفيدك، لن ترجعي بدون أنْ تحصلي على ما طلبتِ، فابنتي ستكون عروسكم، مبروكٌ! وأرجو أنْ تُبارِكي هذه الخطبة، يا أمي المحترمة>>.

فقامت جدة زوجي وخرجت إلى حمارها، وأخرجت من خرج الحمار قطعة قماشٍ ملون مع شالٍ لتغطية الرأس، وليرة ذهبٍ عثمانيةٍ، ووضعتها في حجري وأنا جالسةٌ على الأرض، قدمتها كمهرٍ لي وأصبحتُ مخطوبةً لشابٍ عرفنا نسبه فقط من دون أنْ نعرف شكل العريس.

طبعا انا كنت طفلةً لا اعرف ما هو الزوج او الزواج، تركت الهدايا جانبا وركضت حافية القدمين للعب مع اخوي وفتيات القرية.

كان اسم عائلة زوجي هو (عائلة مغسي هاروتيون)، كان هذا الاسم معروفًا في أرجاء قرى ومدن (فان)، فبمجرد سماع اسم العائلة، عرفهم أبي على الفور (موخسي هاروتيون).

وما إن تم الاتفاق بين جدة خطيبي وأبي، حتى امتطت جدة خطيبي ظهر حمارها، وذهبت راجعة قريرة العين؛ ليستعدوا للزواج بعد أربعينَ يومًا، حيث ستأتي؛ لتأخذني عروسةً لحفيدها.

طبعًا، لم نكن نعرف حساب الأيام، ولم نكن نعرف أسماء الأشهر والتواريخ أبدًا؛ لذلك قام والدي باستخدام طريقةٍ تقليديةٍ كنا نستخدمها لحساب الأيام، وهي: وضع أبي على كل إصبعٍ من أصابع أخي ريشةً واحدةً، وكرر العملية أربعة مراتٍ، فصار الناتج أربعين ريشةً، ثم غرس الريشات الأربعين في بصلةٍ كبيرةٍ، وعلقها بالخيط من السقف، وكان في كل مساءٍ يقوم بخلع أحد الريشات من البصلة؛ لتتسنى لنا معرفة كم يومًا انقضى من الأربعين يومًا. (كانت هذه الطريقة معروفةً ومستخدمةً في كل البيوت تقريبًا، خاصةً في أيام الأصوام أو ترَقُّب الأعياد، وفي نهاية الأربعين يومًا، كانت تضاف تلك البصلة لحساء العيد للتبرُّك).

وسرعان ما انقضت الأربعون يومًا، واجتمعت الفتيات والنساء من أقاربنا في منزلنا، وقبل الظهر، أتت جدة زوجي بحسب الموعد برفقة بغلين، كانت تمتطي أحدهما، وتجر الثاني خلفها، وقد زيَّنته بالورود وقصاصات القماش الملون، وبغناءٍ بسيطٍ وتصفيقٍ ودَّعتني أمي بدموعٍ وبكاءٍ، وودَّعتني بنات أقاربنا أيضًا، وحملني أبي على كتفه وهو يبكي، ووضعني على ظهر البغل الثاني المزين الذي أتت به الجدة، ثم قامت جدة خطيبي، بوضع قطعة قماشٍ سميكٍ على رأسي حيث أغطاني من رأسي إلى أخمص قدمَي. لم أكن أرَ شيئًا من خلاله، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يراني.

وسار موكبنا الصغير، وأبي يقود مطيتي؛ لأن الطريق من قريتنا إلى مدينة (موكس) كان يمر عبر الجبال، والثلوج كانت قد هطلت في تلك السنة بغزارةٍ؛ فكان الطريق الذي سنسلكه عبر الجبال مغطىً بالثلوج، التي تعلوني كثيرًا. فقادت حماتي مطيتها، وأبي قاد البغل الذي أمتطيه، وسرنا بين الثلوج من قُبَيل الظهر إلى المساء حتى أصبحنا على مشارف مدينة موكس.

فاستقبلَنا جمعٌ كبيرٌ من المدعوين من نساءٍ ورجالٍ، بالتهليلات والرقص والبوق والغناء. فسار موكب العرس الكبير إلى داخل المدينة، حتى وصلنا ساحة الكنيسة، فتوقف موكب العرس. فأسرع والدي وحملني وأنزلني من على ظهر البغل، فدخلنا الكنيسة، التي كانت مليئةً بالضيوف، وأقيمَت مراسيم الزواج. وبحسب العادة، لم يسألني الكاهن: <<هل تقبلين بفلانٍ زوجًا لكِ؟>> بل قام الكاهن بسؤال أبي، الذي كان يقف إلى جواري؛ لأنه كان من العار على المرأة أنْ تتكلم في الكنيسة أو يُسمعَ صوتها؛ لذلك أجاب أبي على أسئلة الكاهن بالنيابة عني بكلمة: <<نعم>>.

كان رأسي ووجهي مغطَّيْن بالكامل، حتى بعد خروجنا من الكنيسة، لم يُرفع ذلك الغطاء السميك من على رأسي، حتى أخذوني إلى مكان العرس وأجلسوني بين النساء، وفي ذلك الوقت فقط رُفِع ذلك الغطاء السميك والثقيل من فوق رأسي. وبعد عرسٍ كبيرٍ دام ليومين، وأنا لم أرَ وجه من قد أصبحَ زوجي، ولم يَرَ هو وجهي، ولم يعرف من أكون، فقط أبي قد رآه.

وبعد مراسيم الكنيسة ترك زوجي العرس، وذهب لرعاية قطعان الماشية في الجبال، ومِن دون أنْ يكلمني أو يرى وجهي (كان صبيًّا).

هو ذهب لمتابعة قطعان الماشية في المراعي في الجبال، وأنا ذهبت في اليوم التالي لألعب مع الفتيات من أترابي من أخوات زوجي والجيران.

كان عدد أفراد عائلة زوجي ١٤ فردًا، وهم الجد والجدة، مع بناتهم الثلاث الجميلات كالقمر، وحميَّ وحماتي، ولديهم ٤-بنات، و٣-أولاد، من ضمنهم زوجي.

منذ أول ليلةٍ لزواجنا، أخذتْني الجدة -جدة زوجي- للنوم في فراشها المشترك مع بناتها الثلاث.

كان تغطية وجوه النساء، وعدم تكلم النساء مع الرجال، من التقاليد السائدة في المجتمع آن ذاك، ومن الخلقيات الرفيعة السائدة دون منازعٍ.

فكان سماع صوت المرأة شيئًا غيرَ أخلاقيٍّ، وظهور وجهها شيئًا معيبًا جدًا. كانت هذه هي التقاليد المحافَظ عليها، كل الجسم من الرأس لأخمص القدمين كان مغطًى، إلا أنَّ العيون كانت تُرى فقط.

عندما أتيتُ عروسًا لبيت زوجي، كان جد زوجي طاعنًا في السن، مريضًا، طريح الفراشِ، وبين ليلةٍ وضحاها، ساءت حالته جدًا، فاجتمعت العائلة والأقارب كلهم حوله، وطلب الجد المريض (مخسي هاروتيون)، كبير الأسرة أمام الجميع، أن أرفع الخمار عن وجهي؛ ليرى وجه زوجة حفيده، فرفعته بخجلٍ من دون أنْ أرفع عيني في وجهه، ثم قال: <<يا ابنتي، كلميني لأسمع صوتكِ>>.

فطلب أيضًا سماع صوتي بكلمةٍ.

فلم أقبلْ! ...

وألحَّت حماتي أيضًا عليَّ، فلم أقبل أنْ أُكلمه، خجلًا،

وقالت جدة زوجي: <<يا ابنتي، قبّلي يد جد زوجكِ وكلميه ولو بكلمةٍ واحدةٍ!>>

فهمستُ في أُذن جدة زوجي وقلت لها: <<إنْ عرف والدي، فسيقتلني. لا أستطيع، هذا عيبٌ>>.

فذهبتُ أمامَ الجميع بخجلٍ ، ، وقبَّلت يده ووضعتُ يده على رأسي، من دون أنْ أُسمعه صوتي وجلستُ على الأرض عند قدميه.

فقال: <<بُورِكْتِ يا صغيرة، لقد أحسنًا الاختيار...>>

وهكذا توفى جد زوجي في اليوم التالي، ولم أحقق أمنيته في أنْ يسمع صوتي. تلك كانت العادات السائدة في مجتمعنا آنَ ذاك.

وبعد مراسيم الدفن، أخذ الناس يتوافدون على دارنا، بيت (مخسي هاروتيون) لتقديم التعازي، لعشرة أيامٍ متتاليةٍ، كان مئات الأشخاص يأتون لتقديم التعازي، والعشرات منهم يمضون الليل في منزلنا، يوميًّا كنا نعد ثلاث وجبات طعامٍ للمعزّين وبكمياتٍ كبيرةٍ. نحن الفتيات والأقارب كنا نعمل منذ شروق الشمس وإلى وقتٍ

متأخرٍ من الليل، نجمع الحطب للتنور وللطبخ، ونعجن العجين للخبز، ننقل الماء بالجرات للمعزّين، ونأخذ الأواني والقدور إلى يَنبوع الماء؛ لنغسلها. نُعد الفراش؛ لنوم المعزين. وفي الصباح نقوم بجمع الفراش، وهكذا استمرت المراسيم لأكثر من خمسة عشر يومًا.

وبحسب التقاليد المعروفة والمتَّبعة في ذلك الزمان، بعد أربعين يومًا من زواج العروس، كان أهل العروس يأتون ويأخذون ابنتهم من بيت زوجها؛ لتعود إلى بيت أبيها كضيفةٍ، وكان يسمَّى هذا التقليد بـ{خيرانتس، أي: العودة لبيت الأب بحسب العرف، وكان هذا الاسم يحمي العروس من كلام الناس، لكيلا يظن الأقارب من الطرفين بأن العروس قد طُردت بسبب خلافٍ ما، أو وُجِدَ فيها عيبٌ ما. فعندما كان يسأل أحدٌ عنها، كان يُقال بأنْ عروسنا قد ذهبت إلى (خيرانتس) أي: غادرتْ بيت الزوجية؛ لتكون ضيفةً في بيت أبيها، بحسب العرف والتقليد، فتمكث أسبوعين في بيت أبيها، ثم يرجعها أهلها إلى بيت زوجها، وبعد ذلك لا تعود إلى بيت أبيها إلَّا لأسبابٍ خاصةٍ}.

وهكذا وبحسب التقليد والعرف المتَّبع، بعد أربعين يومًا من زواجي، جاء أبي لزيارتي، جاء ليأخذني إلى بيتنا لأسبوعين بحسب العادات.

فجاء والدي إلى بيت عائلة زوجي، وقدَّم التعازي لوالد زوجي، وكان اسمه هوفسيب، على وفاة الجد الكبير (لم يكن قد وصلهم خبر وفاة مغسي هاروتيون)، ثم ذهب بخجلٍ وقبَّلَ يد جدة زوجي وقدَّم التعازي لها، ثم طلب الإذن منها؛ لأنْ تسمح له بأخذي بحسب التقاليد إلى البيت، الذي خرجتُ منه عروسًا. (العرف السائد كان أنَّ الشخص الأكبر سنًّا في العائلة هو من يتخذ القرارات في العائلة، فبعد وفاة الجد أصبحتْ الجدة، هي صاحبة القرار، حتى أن ابنَها، أبا زوجي، لم يكن من حقه قيادة أمور العائلة، وكان هذا من باب (احترام الكبير).

فوافقتْ جدة زوجي على طلب أبي، وطلبوا من أبي أنْ يجلس؛ لتناول الطعام ثم السفر، لكن أبي رفض وبشدةٍ أنْ يأكل أو يشرب أي شيءٍ في بيت أنسبائه. (كان من العار على أهل العروس أنْ يأكلوا أو يشربوا أو يبيتوا في بيت أنسبائهم لأي سببٍ كان، إلَّا في حال دعوتهم لعرسٍ أو في المشاركة لتقديم التعازي لعدة أيامٍ).

فرفض والدي كل أنواع الطعام الذي وضع أمامه، مع أنه كان قد جاء سيرًا على قدميه لنصف نهارٍ تقريبًا، لم يأكل أبي ولم يشرب في بيت عائلة زوجي أي شيءٍ. فقام أبو زوجي بتجهيز بغلٍ ليحملني، ووضع عليه شوالًا من الزبيب وشوالًا من القمح وجرتينِ من الدهن كهديةٍ مع عروسهم إلى بيت أهلها، ووضعوني على البغل الآخر وودعونا. وسار أبي وهو يقود البغلين. (كانت هذه آخر مرةٍ أرى فيها عائلة زوجي؛ حيث الهجرة والمجازر كانت ستبدأ). غادرت بيت الزوجية وانا لم أرى زوجي ولم التقي به كل هذه الفترة.

وبعد وصولنا إلى بيتنا بأسبوعٍ (بيت ابي) ، في أحد الأيام قُبيل العصر، أقبل فارسٌ مسرعًا بحصانه، ووقف عند باب منزلنا ونادى على أبي ليكلمه، فخرج والدي للقائه ودعاه بأنْ يدخل إلى البيت ليستريح كضيفٍ، فرفض الرجل وطلب من أبي أنْ يقترب منه، ثم حاوره بصوتٍ منخفضٍ،

وقال لأبي: <<الليلةَ سيأتونك ضيوفًا>>.

وما إنْ قال تلك الكلمات، حتى ألقى التحية على والدي وانطلق مسرعًا إلى وجهةٍ مجهولةٍ.

ففهم والدي ما قصده الزائر، فالأمر ليس بغريبٍ أو جديدٍ على أبي. (كان في كل عامٍ، لمرةٍ أو مرتين، يزورنا ليلًا مجموعةٌ من الفدائيين الأرمن، الذين يتنقلون من مكانٍ لمكانٍ.

وكانوا يمرون على بيتنا بين الحين والآخر ليلًا، وكان والدي يُرحب بهم في بيتنا أحسن ترحيبٍ، ويستضيفهم بأحسن الطعام والشراب، ويحملهم أيضًا طعامًا وشرابًا كمؤنة لإخوتهم الآخرين في الجبال).

فأسرع والدي، وأخرج جِرار اللحمِ المقددِ بالدهنِ (قاغورما)، وأخرج أنواع الفواكه المجففة؛ لأنه كان شتاءً. ففتح جرة جبنٍ معتَّقٍ، وأسرعتْ والدتي وأعدتْ خبزًا طازجًا، وما إنْ حل الظلام حتى سمعنا وقعات حوافر الخيول تقف أمام دارنا، فأسرعت أنا وأخواي وأمي إلى الغرفة الثانية، ودخل ضيوف أبي من الفدائيين المدججين بالسلاح وأحزمة الرصاص، وكان عددهم ستةً، فرحَّب بهم أبي ودعاهم لتناول العشاء كالعادة، لكنهم هذه المرة كانوا على غير عادتهم،

فقد قالوا: <<لن نجلسَ طويلًا>>.

ورفضوا أنْ يأكلوا شيئًا، فكانوا على عجلةٍ من أمرهم، حيث قال قائدهم، وكان اسمه (آفيديس)، لأبي:

<<أخي سركيس، لم نأتِ هذه المرة للأكل والشرب كما كنا نفعل في الماضي، لقد أتينا لنخبرك لتقوم بتبليغ العوائل الأرمنية التي معكم في القرية، بأنه خلال يومين، يجب عليكم أنْ تتركوا كل شيءٍ، وتخرجوا من هذه القرية سرًّا، متجهين إلى مدينة فان (وان)>>.

فتسمَّر أبي في مكانه من وقع الأمر، وعاد قائد المجموعة (آفيديس) وكلم أبي مرةً أخرى مؤكدًا له: <<إنَّ الوضع خطيرٌ جدًا؛ الأتراك والأكراد بدؤوا بنهب وسلب وقتل واغتصاب الأرمن في القرى والمدن الأخرى. ولابد أنَّ عصاباتهم ستصل إليكم خلال أسبوعٍ، فأُكرر عليك، أُترك كل شيءٍ وانجُ بعائلتك، وبلِّغ كلامي وأمري هذا سرًّا للعوائل الأرمنية الأخرى، التي تسكن القرية>>.

وبعد أنْ أبلغوا أبي بمضمون رسالتهم السرية، خرجوا مسرعين كالبرق دون أنْ يتذوقوا أو يأخذوا معهم شيئًا من الطعام.

فتسمَّر أبي في مكانه ووضع يديه على رأسه
وقال بصوتٍ عالٍ: <<ماذا نترك؟ أو ماذا نأخذ؟ قطعان الماشية؟ أم أراضي الأجداد؟ أم البساتين والحقول والينابيع؟!>>

وأخذتْ أمي تجهش بالبكاء بمرارةٍ، وهي تقول لأبي: <<يجب أنْ ننجّي أطفالنا، وما سنتركه هو لوقتٍ قصيرٍ، وبعدها سنعود أيضًا إلى أراضينا.
سركيس، أمامنا يومين لنحمل ما نستطيع حمله ونتجه إلى مدينة فان، فنذهب عند أقاربنا هناك، ونمكث عندهم. وبعد حينٍ، تعال أنت وحدك وتقصى الأمور هنا.

(طبعًا، إنَّ أبي وأمي كانا كالآخرين أيضًا، لم يستوعبا الوضع وما سيحدث؛ لأنهما كانا مسالمَيْن جدًا، الكثير من الناس تمتَّع بعطفهما وتنعَّم في محبتهما. لم يكونا شريريْن، ولا قاسيا القلب ليتصورا ما مدى الشر والقسوة والظلم، الذي كان ممكنًا أنْ يصدر من إنسانٍ نحو أخيه الإنسان، ولم يخطر على بالهما حتى، ماذا يمكن أنْ يحدث).

فبقي أبي جالسًا طوال الليل يلف السكائر، بجانب موقد النارِ، وهو لا يعرف مِن أين يبدأ أو أين ينتهي.
وفي الصباح الباكر، ذهب والدي ليبلغ الرسالة السرية لأقاربنا الآخرين، الذين معنا في القرية، لكن البعض منهم رفض وقال، بأنهم سيمكثون في القرية مهما حدث، والبعض الآخر قالوا لأبي:
<<لن نذهبْ إلى مدينة فان؛ لأنها بعيدةٌ، بل سنصعد إلى الجبال موقتًا>>.

وهكذا في اليوم الثالث قبل شروق الشمس، أخذ أبي ثورًا كبيرًا ووضع عليه بعض الأغطية والطعام، وأجلسَ عليه أخويَّ الصغيرين -هاكوب و سركيس-، حيث هاكوب كان يومها في سن العاشرة، وسركيس في سن التاسعة. وجلب ثورًا آخر من الحظيرة ووضع عليه أغطيةً وطعامًا أيضًا، وأجلس أمي على ظهره، وحمَّل أحد البغال أغراضنا الضرورية مع بعض الطعام، وامتطيته أنا، وهو قاد الثورين والبغل. وهكذا

قبل شروق الشمس، تركنا المنزل، الذي توارثه أبي جيلًا عن جيلٍ من أجداده، وتركنا عشرات الأبقار، ومئات الخرفان، والبستانين، وسرنا نحو وجهتنا، والتي كانت مدينة فان.

لكنْ ما إنْ سرنا لمسافةٍ حتى قال لي والدي: <<سنذهب أولًا إلى بيت زوجك، في مدينة موكس؛ لأُرجعكِ إليهم أولًا؛ فهم أهلك الآن، ومن ثم نحن نكمل مسيرنا إلى فان، فأخذتُ أبكي بصوتٍ عالٍ، (لم يكن من اللائق أنْ أُناقش قرار أبي).

وما إنْ سرنا في الثلوج لعدة ساعاتٍ، حتى التقينا بقافلةٍ أرمنيةٍ صغيرةٍ هاربةٍ مثلنا، كان عَدَدُهم تقريبًا خمسين شخصًا، فأوقَفونا؛ ليسألوا أبي عن وجهتنا. وعندما عرفوا بأننا ذاهبون إلى موكس، قالُوا لأبي:

<<يوم أمسٍ تعرضتْ مدينةُ موكس للهجمات من الأتراك والأكراد، وتعرضتْ للسلب والنهب والقتل، ومَن استطاع النجاةَ منهم خرجَ منها في قوافلَ إلى طرقٍ مختلفةٍ، ومِن المحتمل أنَّ عصابات الأتراك والأكراد يَبعُدوننا بساعاتٍ قليلةٍ، فغيِّرْ وجهتك وانجُ بعائلتك، ويجدر بكُم أنْ تنضموا إلينا في مسيرتنا؛ للهرب إلى فان>>.

وضَمَّ أبي رُكبنا إلى القافلة، التي التقينا بها، والتي كانت تسير في وسط الثلوج مثلنا، فغيَّرنا وجهتنا، وأصبح اتجاهنا الآن إلى نحو الجبال، أو في طريقٍ محايدٍ للجبال، حيث يصعب على الخيول أن تَتَتَبَّعَ آثارنا.

وسارتْ قافلتنا بخطًى ثقيلةٍ حتى قُبيل المساء، حيث لاقتنا قافلةٌ كبيرةٌ هاربةً من بطشِ عصابات الأتراكِ والأكرادِ، كان عددهم يفوق المئة شخصٍ، تحرسهم مجموعةٌ من الفرسان الفدائيين الأرمن، فأجبرونا على الانضمام لهم؛ من أجل حمايتنا وسلامتنا. وخيَّمنا في وسط الثلوج مِن دون أنْ نشعل نارًا. كانت تلك ليلةً موحشةً جدًا، ظننتُها الأسوأ في مسيرتِنا، لكن كانت الأقدارُ لا تزال تُخفي لنا المزيد من تلك الليالي السوداء.

وبينما كنا جالسين، جاء أحد الفرسان إلينا، وطلب من أبي أنْ يشاركَ القافلة بما نحمله معنا من طعامٍ وشرابٍ؛ لأنَّ طعامهم قد نفذ. فهم خرجوا من بيوتهم منذ أربعة أيامٍ، وأما نحن، كنا قد تركنا منزلنا في نفس اليوم.

في بادئ الأمر، رفض أبي الفكرة قائلًا: <<ما معي من الطعام، لا يكفي سوى لعائلتي>>.

لكن بسبب حاجتهم الماسة وبعد حوارٍ قصيرٍ، قام والدي بتقديم ما معنا من زبيبٍ وخبزٍ له، فحمله؛ ليوزعه على الجميع، وهكذا نفذ طعامنا.

وبينما كنا نستريح ليلًا، حدث في منتصف الليل، أنهم أفاقونا لمعاودة المسير، فما أنْ نهضنا حتى رأينا أنَّ أحد الثوريْن قد نفق من الجوع والبرد، فأخذتْ أمي تبكي وتلطم وجهها بيديها على الثور الذي لطالما خدمنا كانه احد افراد الاسرة.

وبينما كانت أمي تبكي وتندب الثور، جاء أحد الفرسان وقال لها:

<<لا تبكي يا أختاه، أُخزُني دموعكِ، فالوقتُ ما زال مبكرًا على البكاء>>. (يبدو أنه كانت قد مرَّت عليه مواقفُ مؤلمةٌ ومحزنةٌ أكثر مما كانت امي تستوعبه).

وهكذا وعلى عجالةٍ من أمرنا، أجلسني والدي مع أخويَّ على ظهر الثور الآخر، وأجلس أمي على ظهر البغل، وسار أبي وهو يقود الدابتين مع باقي أفراد القافلة، التي كانت بعناءٍ تشق طريقها وسط البرد والثلج.

وما إنْ أشرقت الشمس، حتى سمعنا أصواتًا لإطلاق النار في الجبال، فجاء أحد الفرسان الفدائيين، وتحدث مع قائد الموكب، فأسرع الأخير بتغيير اتجاه سيرنا نحو الجبال مباشرةً.

وبعد مسيرة نصف نهارٍ تقريبًا، شاهدنا لأول مرةٍ، جثث رجالٍ قُطِّعت أوصالهم بالسيوف، ونساءً وفتياتٍ اغتُصِبنَ وبُقِّرت بطونَهنْ.

كانت تلك بقايا إحدى القوافل الأرمنية الفارَّة من بطش الأعداء، كانت العصابات التركية والكردية قد لحقت بهم وبطشت بهم جميعًا دون رحمةٍ، ونثرت جثثهم في

الثلوج، فأخذنا نحن النسوة جميعًا نبكي ونصرخ، ونساءٌ في قافلتنا بدأْن يلطمن على وجوهِهنَّ من هول ذلك المنظر الذي لم يسبق ان مر على احد سابقًا،

فبعد مشاهدتنا لذلك المنظر، تيقَّنَّا بأننا أمام أمرٍ جديٍّ، لن ينتهي خلال أسبوعٍ أو شهرٍ. وأما أبي، فقد تغيرتْ ملامح وجهه، وبات قلقًا علينا أكثر من ذي قبلٍ.

فأسرعَ بعض الرجال من قافلتنا، ليُغطُّوا تلك الجثث بالثلج، لكن قائد الفدائيين أسرع نحوهم بحصانه وأوقفهم قائلًا:

<<لا وقتَ لمثل هذه الأعمال الإنسانية، إنْ لم تُسرعوا، فكلكم ستُقتلون مثلهم>>.

فتراجع الرجال عما هموا بالقيام به، وأسرعتْ قافلتنا في السير نحو الجبال، ووصلنا قرابة المساءِ إلى وادٍ صخريٍّ عميقٍ جدًّا. فطلبوا منا أن نَنزِلَ ذلك الوادي، فتَركنا مع الكثيرين مثلَنا مطيتَنا هناك، وحَمَلنا فقط ما استطعنا حملَه، وأخذنا نتشبث بالصخور المدببة والزلقة محاولين النزول إلى أسفل ذلك الوادي. وحل الليل ونحن نتشبث بالصخور، ونزل في الوادي، الذي كان الظلام الدامس يغطيه بالكامل. وما إنْ وصلنا إلى قعر الوادي حتى صرخ أحدهم قائلًا:

<<انتبهوا... انتبهوا... نحن نسير فوق جثث بشرٍ!>>

نعم، كان الوادي، تحت أقدامنا مليئًا بالجثث. أنا عن نفسي، شعرت بأنني قد مشيت فوق ما لا يقل عن عشرين جثةً، كنت أُحاول بأصابع قدمَيَّ أنْ أتلمس أين أضع رجلَيَّ، مفكرةً:

<<هل هذا بطن إنسانٍ أم ظهره؟ هل هذا طفلٌ؟!!>>

كنت أقول: <<يا رب... يا رب...>>

وأطأ بقدمِي ملتمسةً أرضًا؛ لأستطيع السير فوقها. وبينما كنا نسير فوق الجثث، أخذتْ النسوةُ يَبكِين، والفتيات والأطفال يَصرخون، ويحاول الرجال إسكاتَهن؛ لعدم إثارة ضجيجٍ يشد انتباه العدو، فربما فلول العصابات التركية والكردية ما زالت قريبةً تراقب المكان.

وفعلًا، ما هي إلا دقائقَ حتى أدرك الأعداء بأن هنالك أشخاصٌ يحاولون عبور الوادي، وأخذوا يطلقون النار من أعلى الوادي من خلفنا، كان إطلاق النار عشوائيًّا بسبب الظلام، لكنه كان كثيفًا جدًا جدًا.

فأسرعنا لتسلق الطرف الآخر من الوادي صعودًا، حيث كان يعلو الوادي سفح جبلٍ شاهقٍ. فبينما كانت رشقات الرصاص تتوالى علينا مناهلةً كالمطر ، وكانت بين الحين والآخر، تُصيب وتُسقط من هنا ومن هناك، النساء والرجال والأطفال والشباب، ويصرخ هذا، وتصرخ تلك. ومع ذلك، شكرًا لله. إنَّ الوقت كان ليلًا، وكان الظلام حالًّا دون تصويب إطلاقاتهم علينا بشكلٍ مباشرٍ،

فلم يكونوا يستطيعون رؤيتنا، لذلك سقط البعض فقط على أثر الرصاص العشوائي، وأَما نحن -الناجون- فاستمرينا في تسلق جدار الوادي الصخري، ثم سفح الجبل العالي، حيث حمل أبي أخي هاكوبَ على ظهره، وحملت أمي أخي سركيسَ على ظهرها، وكنت أنا أتسلق أمامهم، فكنا نتسلق قليلًا ونستريح قليلًا؛ محاولين أنْ نبقى بعضنا إلى جنب بعضٍ، حتى وصلنا مع مطلع الفجر إلى ديرٍ كبيرٍ على سفح ذلك الجبل.

كان اسم ذلك الدير (سُوزْب مارُوتي) أو (ماروكي). لم أعرف: إنْ كان ديرًا أرمنيًّا أَمْ لا. فمن شدة التعب والإعياء والجوع؛ افترشنا نحن الناجين جميعًا، في فناء ذلك الدير، على الأرض بين الثلوج، نصارع الجوع والخوف والتعب من أجل الحياة.

وفي خضم ذلك الصراع أخذتنا غفوة النوم لساعاتٍ، فلا يمكن أنْ أوصف تلك المعاناة، التي مرت علينا في تلك الليلة أبدًا.

وعندما استفقنا ونهضنا على صوت بكاء الأطفال، رأيت الدير وساحته الكبيرة مليئةً بالمئات من النساء والأطفال، والرجال الجرحى، لم أستطع أنْ أميز، من هم النائمون، ومن هم الأموات.

وفي لحظةٍ سوداء، صرخ أخي سركيس: <<أمي، أمي لا تتحركُ!>>

كانت أمي مستلقيةً بجانب أخي على وجهها وتحتها بركة دمٍ، فأسرع أبي نحوها. وما إنْ قَلَبَها على ظهرها، حتى صرختُ أنا بعلو صوتي: <<يا أُماهُ... يأُ ماهُ!>>

كانت أمي المسكينة الحنونة، قد تلقَّت رصاصةً بجنبها الأيمن أثناء تسلقها الوادي، لكنها تحمَّلت الألم والنزف؛ لأنها كانت تحمل أخي على ظهرها ولم تخبر أحدًا، ويبدو أنها ظلت تنزف طوال الليل من دون أنْ تتفوه بكلمةٍ، حتى توفيت وهي مستلقيةٌ في ساحة الدير.

فأخذتُ أبكي وأندب أمي، وأضرب بيديَّ على رأسي وقدمَيَّ، وأخواي يصرُخان، لكن لم يهتم أحدٌ لنا، فالعشرات كانوا مثلنا ينوحون ويبكون على أحبائهم وذويهم، فلم يكن صوتي، إلا صوتًا آخر ينظم لأصواتٍ كثيرةٍ: <<آه... يا أُماه، آه... يَا أُماه...>>

وحتى اليوم، لا زلت أذكر منظر أمي وهي مغطاةٌ بدمائها.

فحمل أبي جثة والدتي، وحفر حفرةً بيديه في ساحة الدير، ودفن جثتها في ذلك الدير: <<لربما زرتم يومًا ما ذلك الدير، تذكروا أنَّ جدتكم قد دُفنت هناك>>.

وما إنْ انتهى أبي من دفن جثة أمي، حتى صرخ المراقبون:

<<الأكراد! الأكراد قادمون! استعدوا للهرب!>> فمسكتُ بيدَيْ أخويَّ، وسرنا خلف والدي؛ لننضم إلى القافلة، التي أصبح عددها الآن يفوق الأربعمئة شخصٍ، مع الذين انضموا لها من ذلك الدير، وأصبح الآن مصيرنا مرتبطًا بمصير هذه القافلة.

وخرجنا من الدير مرةً أُخرى، والجوع والعطش من جهةٍ والبرد والأعداء من جهةٍ أُخرى يُفَتِّكونَ بنا.

وكان أبي يَعلَم أن مع كل خطوةٍ نخطوها هاربين، إننا نذهب مبتعدين، مبتعدين عن أرضنا وعن بيتنا، فكنت أسمع أبي وهو يُحَدِّثُ نَفْسَهُ قائلًا:

<<كيف سنعود؟ متى سنعود؟ مِنْ أين الطريق؟>>

طبعًا، القافلة لم تكن تذهب إلى وجهةٍ مجهولةٍ، لا.. فكانت للقوافل وجهاتٍ للنجاة، وكان هناك مرشدًا يتقدم كل قافلةٍ، وهي تشق طريقها وسط الثلوج والجبال. لذلك كان أبي يتساءل متحيرًا: <<أين نذهب؟ كيف سنعود؟ ...إلخ>>

وسرنا يومًا كاملًا بأمانٍ دون أنْ تجد عصابات الأتراك وأعوانهم قافلتنا الكبيرة. كان الجوع شديدًا جدًا، فإن أخويَّ الصغيرين مع أقرانهما من الأطفال، كانا يبكيان من شدة الجوع، فقال أبي لي: <<انتبهي يا ابنتي يالدوز، سأذهب إلى الأمام لعلي أجد طعامًا لكم!"

فتقدم أبي مسرعًا ومتقدمًا، بين حشود السائرين في القافلة الكبيرة، وعاد وهو يحمل بيده حفنةً صغيرةً من حبات الحنطة، من حيث لا أدري، وأعطاها لي ولأخوَيَّ الصغيرين وقال:

<<لا تأكلوها كلها مرةً واحدةً، بل كلوها حبةً تلوى الأخرى، لتشعروا بالشبع>>.

كنتُ أنا وأخواي لا نزال نبكي معًا على أمي، التي قُتِلَت برصاص الأتراك ونتساءل: <<لماذا؟ ماذا فعلَتْ؟ ماذا فعلْنا؟>>

وما إن بالكاد توقفت قافلتنا وأخذنا قسطًا من الراحة، حتى سرعانَ ما تحركت القافلة مرةً أخرى، لمعاودة مسيرها، فالتقينا بقوافلَ قد جاءت من مدنٍ وقرًى مختلفةٍ، فأصبحت قافلتُنا كبيرةً جدًا جدًا، ربما فاق عددها الألفَي شخصٍ. والذين التحقوا بنا، كانوا يحملون معهم أكياسًا (شِوَالَاتٍ) من الزبيب، فتقاسموه معنا، فأكل أخواي وأكلتُ أنا ووالدِي، لأول مرةٍ منذ أسبوعٍ، نشعر ببعض الشبع الموقت.

وبينما كنا نستريح على الأرض، صرخ أحد الفدائيين: <<أسرعوا! انهضوا! إنَّ العدو خلفنا ويتقدم بسرعةٍ، العصابات الكردية ستصل إلينا...!>>

فأثارت صرخاته المنذرة بالخطر هذه فوضًى عارمةً بين صفوف الناس، فالكل هرعوا مسرعين تاركين ما يحملونه وراءهم، تاركين حتى بعضهم البعض، فمن

استطاع النهوض والركض، انطلق مسرعًا، ومن كان كبير السن تأخر أو بقي هناك ليلاقي مصيره المحتوم.

وأسرعتُ فأمسكتُ بيدَيْ أخويَّ الصغيرَين، وركضنا وأبي من خلفنا. كان أبي الحبيب يحاول أنْ يهدِّئ من فزعنا وروعنا، حيث كنا نصرخ ونبكي كالآخرين. كانت أصوات الصراخ والبكاء والعويل تعلوا وتتصدى بين الجبال المحيطة بذلك الوادي الكبير، حيث كانت الجبال تحيط به من كل جانبٍ.

وسارت القافلة مرةً أخرى، بعدد نفوسٍ أكبر.

لا... لا أستطيع أنْ أقول قافلةً، لأنها صارت فوضويةً، فالعديد من كبار السن كانوا واقعين على وجوههم بين الصخور، والآخرين يدوسون عليهم، وهم لا يعلمون، إنْ كانوا أحياءً أمْ أمواتًا.

وبينما نركض رأيت نساءً حواملَ تُركِن بين الصخور؛ لأنهن لم يستطعن الهرب والتحرك بسرعةٍ، ورأيت كيف أنَّ الثيران المفزوعة كانت تدوس النساء والأطفال، وتسحقهم بأرجلها. ونحن -ما تبقَّى من عائلتي، أنا، أخواي وأبي-، كنا لأول مرةٍ نمر بوضعٍ كهذا، فهذه المرة كان العدو خلفنا وقريبًا منا، وفي وضح النهار.

فتجمَّع الفدائيون وشكلوا خطًّا دفاعيًّا خلف المدنيين الأبرياء، ليعيقوا تقدم العدو، وأما أفراد القافلة المفزوعون، كانوا يدفعون بأبنائهم الصغار والشباب والشابات إلى الأمام، ويبقى الكبار في الخلف؛ ليحموهم، وليصدوا رصاص العدو بأجسادهم.

وهكذا كان يفعل أبي، فضمنا من الخلف بين ذراعيه، ليصد رصاص العدو بظهره؛ كيلا يصيبنا. كان ذلك اليوم مأساةً إنسانيةً حقيقيةً لا مثيل لها، ولا أستطيع بكلماتٍ أنْ أوصفها لك بشكلها البشع والمروع وحقيقتها وآلامها وحزنها. وهكذا مَن استطاع الركض ركض، حتى صار أمام الناس وادٍ مهولًا عريضًا، تجري المياه القاتلة بين ضفتيه بشكلٍ عجيبٍ، جارفةً للأحياء والأموات، لم يكن قد خطر على بال إنسانٍ

يومًا ما، أنْ يجازف ويعبر ذلك الوادي، على الأقل من ذلك المكان وفي ذلك الموسم. كان صوت أمواجه، التي تتكسر على الصخور بين ضفتيه، تفوح بشبه فحيح الثعابين القاتلة، كانت مياهً لا ترحم، أمواجه تجرف الكبير والصغير. إنه شيءٌ مرعبٌ، لا يمكن أنْ أوصفه على حقيقته.

فالآن، بات لا خيارَ لنا، إما أنْ نغامر بعبور ذلك الوادي، أو نبقى لتصل إلينا عصابات الأتراك والأكراد... فماذا نفعل؟!

(فيما بعد سمى الأرمن ذلك الوادي باسم (كودوراتس كلي أو كودولي كلي)، وحصل الوادي على هذا الاسم الدموي، والذي يعني (وادي الموت)، إثر المجازر الأرمنية، لكثرة الأرواح، التي زُهقَت فيه أو على ضفافه، أو بسببه).

فقال أبي: <<لنتراجع للخلف>>.

فبينما أسرع المئات من الناس إلى الوادي ليلقوا انفسهم في مياهه، كنت أرى مئات الجثث: جثث الأطفال، والنساء، والرجال، والشباب، تجرفهم تيارات مياه الوادي، وكان البعض منهم يصرخون طالبين النجدة، والبعض الآخر أمواتًا وجثثًا، تقلبها أمواج الوادي وتسحق عظامهم على صخورها دون رحمةٍ. كان المشهد مروعًا ودمويًا: جثثٌ... وصراخٌ... ورصاصٌ... وعدوٌ في الخلف.

رأيت بعيني هاتين أمهاتٍ كثيراتٍ يقمن بشد أرجل أطفالهن إلى الشجيرات، ويتركن أطفالهن بين صخور الوادي، لعله تُكتَب لهم فرصة نجاةٍ! وأما هن فكن يلقين بأنفسهن في مياه الوادي ليموتن؛ حتى لا تلمس أجسادهم
الطاهرة يد الأعداء النجسة.

رأيت العشرات من النساء الحوامل والفتيات الشابات، قمن بإلقاء أنفسهن في مياه الوادي ليموتن عفيفاتٍ، كيلا يأسرهن العدو. بأُمِّ عينَي رأيت رجالًا كُبارًا في السن، وضعوا أبناءهم على ظهورهم، وقفزوا في مياه الوادي؛ محاولين حمل أبنائهم للطرف الآخر من الوادي.

الكثير منهم جرفتهم مياه ذلك الوادي المميت، والقليل منهم فقط استطاعوا النجاة. رأيت بأُمِّ عينَي مئاتًا من الأطفال الرضع والصغار يتمرغون في التراب، والكلاب تأكل أطرافهم.

وبينما كنت أنا وأبي وأخواي ننتظر متحيرين: <<ماذا نفعل؟>> حيث أصوات الرصاص باتت تقترب منا اكثر. لا أعرف كيف لمح والدي من بعيدٍ بين الأشجار ثورًا كبيرًا، فتركَنا وركض وأتى بالثور، ووضعني أنا وأخوَيَّ على ظهر الثور، وربَطنا بعضنا ببعضٍ، وقاد الثور من بين الجموع مسرعًا نحو مياه الوادي، كنا نبكي خوفًا من هول المنظر ونصرخ: <<يا رب، أَعِنَّا! أبي ....أبي >>

فأسرع عددٌ من الشابات وتمسكن بالثور معنا، وشق الثور طريقه في وسط الأمواج الهائجة من بين الجثث، ووالدِي تارةً يتمسَّك برأس الثور، وتارةً يتمسَّك بقرنيه. وصارت الإطلاقات النارية، التي كانت العصابات الكردية تطلقها علينا قريبةً جدًا، كان الرصاص كالمطر ينهال من كل صوبٍ علينا، ويقتل من تركناهم على الضفة الأخرى من خلفنا، وحتى بات صفيرها يمر فوق رؤوسنا.

لقد أوصلَنا الثور للضفة الأخرى بأعجوبةٍ، (كان هذا الثور نجدةً من السماء لنا)، وما إنْ وضع أبي قدمَيه على اليابسة حتى مد يدَيه المرتجفتين وأمسك بيَّ وبأخويَّ، وحملَنا إلى اليابسة، ثم ساعد الفتيات اللواتي تمسكن بالثور أيضًا، وأما الثور، الذي أنهكته قوة الأمواج. ما إنْ أوصلَنا إلى الجرف الآخر، ووطئنا الأرض بأقدامنا، حتى خارت قواه وأخذته الأمواج بلمح البصر كانه غصن شجرة.

كانت نجاتنا معجزةً، معجزةً حقيقيةً.

لكن الآن، في الطرف الآخر من هذا الوادي، لم ينجُ إلا نفرًا قليلًا مِمَّن كانوا معنا في القافلة. مئات الأطفال والنساء، والنساء الحوامل، وكبار السن، والرجال والشباب، قد قتلتْهم مياه هذا الوادي اللعين، والذين بقوا بين صخور الوادي مختبئين، قتلتهم خناجر وسيوف ورصاص العدو...

الآن، لم يعد أحدٌ يبكي، فمن نجى منا كأنه قد وُلد من جديدٍ. ومن فقد أحد أفراد عائلته، لم يعد الآن ينوح عليه، لأنه على الأقل هو قد كُتبت له الحياة من موتٍ محقَّقٍ. أصبحنا لبرهةٍ نشعر بالأمان، فمن المستحيل والجنون أنْ يعبر العدو هذا الوادي بخيوله.

فسرْنا مسيرة نصف نهارٍ عن ذلك الوادي، تحت سفح جبلٍ، وتوقفت القافلة للاستراحة، وخرج الناجون وهم قلائلُ يبحثون عن طعامٍ بين الصخور.

البعض منا كان لم يأكل شيئًا من الطعام لعدة أيامٍ، فلم يكن هناك شيئًا ليؤكل. ومن شدة الجوع، اضطر البعض أنْ يأكل الحشائش، لكنَّ أبي منعنا من فعل ذلك. فالذين من شدة الجوع أكلوا الحشائش، ما هي إلا ساعاتٍ حتى انتفخت بطونهم، وماتوا في اليوم الثاني بسبب أكلهم لتلك الحشائش.

أما والدِي كان قد تعرَّف على أحد الفدائيين الأرمن، الذين كانت تربطه به صلة قرابةٍ، فقدَّم لوالدِي كسرتٍ من رغيف خبزٍ يابسٍ مع مسحة دهنٍ تقاسمناه فيما بيننا.

وفي اليوم التالي، انضمت لنا قافلةٌ أخرى، تضم عوائلَ فارةً من مدينة فان، بعد أنْ تكبَّدت تلك القافلة آلاف القتلى عبر الطريق وذلك الوادي المميت، وكانت هذه القوافل تضم أفرادًا مهاجرين من مدنِ: فان، وموكس، وهرماش، وهايوتس تسور، وشاطاخ...إلخ

فأسرع أبي ليتفقد أفراد تلك القافلة؛ لعله يجد زوجي، أو أهل زوجي، أو حتى أحد الأقارب والأصدقاء فيها، وربما يجد بعض الطعام لأخويَّ الصغيرين اللذين يتضوران جوعًا!،

فوجد بين الناجين رجلاً في متوسط العمر، كان يدعى (دافيت)، كان أحد أقاربنا، حيث كان يسكن في مدينة موكس، التي تزوجتُ فيها، وكان قد فقد جميع أفراد

أسرته، البالغ عددهم ١٦ فردًا. فسأله أبي عن أهل زوجي وزوجي لعله يعرف شيئًا ما عن مصيرهم، فقال له العم دافيت:

<<لا أعتقد أنَّ أحدًا منهم قد نجى. ولا تحزنْ؛ لأنَّ حتى نحن لن ينجو منا أحدٌ. فأنتم لم تروا هول ما قد رأينا، فقد هجمت العصابات التركية والكردية على المنازل في مدينة موكس، وقتلوا الذكور والأطفال وخطفوا الشابات واغتصبوهن، ثم قتلوهن. ولا أظن أنَّ أحدًا من عائلة موخسي هاروتيون قد نجى>>.

وكان العم دافيت يحمل معه كيسًا مصنوعًا من القماش، يضع فيه بعض قطعٍ من اللبن المجفف، وبالكاد كان قد أعطى لوالدِي أربع قطعٍ منها، فعاد أبي فرحًا إلينا، وهو يحمل في جعبته قطع اللبن الناشف، وأخرج اثنين منها بحذرٍ شديدٍ وتأنٍ؛ كيلا يراه أحدٌ مِمَّن حولنا، ثم لفها بقطعة قماشٍ والتقط حجرًا من الأرض، وأخذ يسحق بها قطع اللبن الناشف، التي في اللفافة رويدًا رويدًا.

ثم قال لي: <<يا ابنتي يالدوز، أنت كبيرةٌ، اتركي النصيب الأكبر لأخويكِ؛ لأنهما صغيران>>.

وبالرغم من أنني كنت جائعةً جدًا، وقد انهارتْ قواي من شدة الجوع، لكنني لم أعصِ كلام أبي. فعندما رأيت دموع أبي تترجاني طالبةً مني أنْ أترك نصيبي من الطعام لأخويَّ، قبل أنْ يطلب هو بلسانه مني، أخذت أبكي على حالنا بصوتٍ عالٍ وأصرخ قائلةً له: <<أبي... أبي... أرجعني إلى قريتنا وبيتنا، أريد أنْ آكل الخوخ والتين مع خبز أمي!>>

فبكى أبي وقال:

<<لقد انتهى كل شيءٍ يا ابنتي، كل شيءٍ قد انتهى، كما انتهت أمك>>. هنا، وفي هذا الموقف المؤلم، وأنا أرى دموع أبي، شعرت بأننا لنْ نعود ثانيةً إلى أرض الخيرات، إلى منزلنا وأرضنا، وإنني قد فقَدت أمي والوطن إلى الأبد.

فقبل هذا الحوار كنت مصدومةً، وأشعر بأنني في دوامةٍ أو حلمٍ سينتهي سريعًا ويعود كل شيءٍ كما كان، لكن الآن بعد أنْ أصبحنا مهاجرين عند حدود بلد يقال لها إيران، شعرت بأنَّ كل ما دار كان حقيقةً. وقد انتهت أيام سعادتنا وعزنا في بيتنا وقريتنا، انتهت وإلى الأبد...

فأفرغ أبي كميةً من مسحوق اللبن الناشف في فم أخي هاكوب، ثم سكب كميةً أخرى في فم أخي سركيس، وما تبقى منه في اللفافة، أفرغه في فمي، وأما الرذاذ المتبقي بين طيات اللفافة، فنفضه أبي في فيه مكتفيًا بالقليل، ثم أعطى لكل واحدٍ منا شربة ماءٍ.

لكنَّ أخويَّ الصغيرين، كانا لا يزالان يتضوران ويبكيان من شدة الجوع، فلم يعد أمام أبي أيَّ سبيلٍ لإشباع أخويَّ، فاضطر أنْ يتركنا؛ ليذهب باحثًا في الوادي الذي أمامنا بعيدًا، لعله يجد شيئًا صالحًا للأكل، فكنت بيدي أضم أخويَّ إلى حضني الصغير، و بعينَيَّ المدمعتين أراقب أبي وهو يبحث بعيدًا بين الصخور عما قد يؤكل.

وما هي إلا ساعةً واحدةً أو أكثر، حتى عاد أبي أدراجه بخطًى سريعةٍ، وهو يحمل بين يديه جذور نباتاتٍ، كان يعرف أنها صالحةٌ للأكل، مع خمس بيضاتٍ صغيراتٍ، قد تركتها إحدى الطيور في عشٍ هناك بين الصخور.

سعادة أبي لم تكن توصَف في تلك الساعة، فأسرع ووضع الجذور في صحنٍ خشبيٍّ، وأخذ يسحقها بحجرٍ حتى صارت كالعجين، ووضع عليها ما تبقى معه من قطع اللبن المجفف، وكسر البيضات الصغيرات فوق الخليط، وأخذ يعجنها بفرحٍ وبسرعةٍ، وهو يتلفت يمينًا وشمالًا خشيةً مِن أنْ يرانا أحدٌ ما، ثم سكب قليلًا من الماء على الخليط وقدمها لأخويَّ، اللذين كانت أعينهما تراقب يدَيْ أبي بشغفٍ، وهو يعد الطعام لهما، فأكل أخويَّ الصغيران من ذلك الخليط حتى شبعا وارتميا على الأرض لينا‌ما، وما تبقى في الصحن، تقاسمته أنا وأبي.

وفي المساء تناقل الناس خبرًا مطمئنًا: <<إنَّ أحد القادة الفدائيين الأرمن الكبار، قد جاء مع فرقته، ليقود ويحمي قافلتنا، التي أصبحت كبيرةً جدًا، بعد أنْ انضمت إليها مجموعةً من قوافل الناجين الصغيرة والكبيرة والأفراد أيضًا>>. فسادَ نوعٌ منَ الطمأنينة والأمان بين جميع الناس.

فنهضنا جميعًا بشجاعةٍ ودون خوفٍ، وأخذنا نسير بين تلك التلال والجبال في قافلةٍ منتظمةٍ، يعد أفرادها بالآلاف، محاطين بالفرسان الفدائيين الأرمن، المدججين بالسلاح. فسرنا طوال الليل حتى الصباح، ولم يحدث شيءٌ، لكن ما ان أشرقت الشمس ووضح النهار، حتى اصبحنا أهدافا للأعداء حيث كان جيش نظامي تركي في انتظارنا هذه المرة بالمدافع.

فما إنْ أصبحنا في أرضٍ مكشوفةٍ سهلةٍ، حتى أخذ الأتراك يصوبون قذائف مدافعهم نحو قافلتنا.

يا إلهي!!! يا إلهي!!! كانت القذائف تنهمر يمينًا ويسارًا، لم نكن نعرف أين يجب علينا أن نهرب!

كان الجميع يصرخون: <<يا الله، احمنا! يا يسوع، احمنا!>>

لم نكن نرى أحدًا، سوى اننا كنا نسمع صفير القذائف، وهي تهوي علينا بلا رحمةٍ ممزّقةً أوصال المهاجرين العزل المكسورين، والمحطمين، الفاقدين للأهل والأولاد والآباء والأقارب.

فحتى ونحن في هذه الحالة، وفي هذا المكان الغريب الموحش، ما زال الأوغاد يلاحقوننا بُغيَةَ القضاء علينا نهائيًّا. فحاول الناس أنْ يتخذوا سواترَ لهم بين الصخور والحفر هنا وهناك، في ذلك السهل الواسع. لكن كانت أوامر الفرقة الفدائية التي تحرسنا: <<أنْ نستمر بالسير وبسرعةٍ، حتى وإنَّ القصف لم يتوقف>>.

فكنا نحن الثلاثة نصرخ ونحن متمسكين بثياب أبي، وهو يسرع راكضًا، والقذائف تتساقط وتقتل الناس، كبارًا وصغارًا بدون رحمةٍ، وتحولهم إلى أشلاءٍ متناثرةٍ، فكنا

نحن مع الآخرين نهرب راكضين كالمجانين، حتى ابتعدنا ووصلنا إلى مكانٍ لمْ تَعُد تلاحقنا القذائف فيه.

فَعَمَّ شيءٌ من الهدوء المخيف، فأسرع أبي وأخذني مع أخويَّ بين ذراعيه، وافترشنا الأرض كالباقين من الناجين؛ لنلتقط أنفاسنا وننعم بالهدوء منتظرين ما قد يحدث. وما هي إلا برهةً من الزمن، حتى ارتفعتْ أصوات البكاء والصراخ من بعيدٍ بشكلٍ غير طبيعيّ، وأسرع عددٌ من المقاتلين الفدائيين بخيولهم نحو مكان البكاء والصراخ. فالوضع أوحى لنا بأنَّ هناك شيءٌ غير طبيعيّ قد حدث. وأخذتْ البقية القليلة الناجية تتجه أيضًا مسرعةً لنفس المكان، وبينما كنا نحن نفترش الأرض مَرَّ رجلٌ مسرعًا بجانبنا، فأسرع أبي واستوقفه وسأله قائلًا: <<ماذا حدث؟>>

فأجاب الرجل قائلًا: <<لقد قُتل القائد الذي أتى بجنوده لحمايتنا، قُتل أثناء القصف!>>

فضرب أبي بيديه على ركبتيه وقال: <<يا للفاجعة! يا للمصيبة!>>

ونهض أبي وأنهضنا عن الأرض معه وقمنا، فذهبنا مسرعين حيث كانت فلول الناسُ مجتمعين، فرأيت المقاتلين يحفرون حفرةً في الأرض، ليدفنوا جثمان قائدهم.

وبينما كان أحدهم يصرخ بصرخات الثأر والوعيد لقاتليه، كان الآخرون يهمون في الإسراع بدفنه، وكان كل الحاضرين يبكون، والنساء يندبنَ ويلطمنَ على رؤوسهن ووجوههن، كان كل الناجين في القافلة تقريبًا متجمهرين هناك عند مكان الدفن ما عدى المصابين، وما إنْ أُنزل الجثمان في القبر، حتى عاود الأعداء الأتراك قصفنا بالمدافع مرةً أخرى، فركض الجميع، وأخذنا نركض نحن أيضًا، وهبَّ المقاتلون لنجدة الناس.

وهكذا عاودْنا السير مرة أخرى تحت نيران المدافع لأكثر من ساعةٍ، فخُطِفت أرواح المئات منا أيضًا.

وفي الصباح، بينما أشرقت الشمس، كنا قد وصلنا إلى مشارف مدينة (سالماست) أو (سالماسة) الإيرانية.

فهبَّ الأرمن، الذين كانوا يسكنون تلك المدينة، إلى نجدتنا. فأسرعوا في تقديم المأكل والمشرب والملابس لنا. وأسرع أبي للبحث عن عائلةٍ، كانوا من أقربائه، وقد سكنوا تلك المدينة منذ سنواتٍ، فوجدهم وجاؤوا وأخذونا إلى منزلهم، وبقينا هناك معهم.

كانوا قد خصصوا غرفةً لنا في بيتهم، لكن لم يكن لي مستقرٌ ولا نومُ، من هول ما مررت به، فكنت أبكي ليلًا ونهارًا على أمي، وأبكي على أقاربي وصديقاتي، الذين سُفِكَت دماؤهم البريئة.

كانت تلك المناظر المأساوية الدموية التي شاهدتُها اثناء هروبنا، تلاحقني في صحوتي ومنامي، فعندما كنت أسمع صوتًا ما، كنت أصرخ من شدة الرعب الذي كان قد تملَّكني.

وهذه العائلة، التي استضافتنا، كانت عائلة العم (كوركين)، كان أحد أقارب والدتي، وكانت لديه عائلةً كبيرةً، تعدادها ٢٢ فردًا ، وقد حاولوا المستحيل معي لإخراجي من تلك الحالة النفسية، التي كنت أمر بها.

ويومًا بعد يومٍ دخل الرعب في قلوب أفراد عائلة العم كوركين، لأنَّ الأرمن الذين يقطنون مدينة سالماست بأمانٍ وسلامٍ، بدؤوا يخافون من أنَّ عصابات الأتراك والأكراد، التي صنعت المجازر بأبناء جلدتهم، ربما تلاحقنا إلى مدينة سالماست، وتقوم بمجازرَ أكبر بحق عموم الأرمن في تلك المدينة؛ لذلك أشار العم كوركين على زوجته وبناته وأبنائه الصغار أنْ يحملوا ممتلكاتهم الثمينة، ويذهبوا ليمكثوا في مدينة طهران، ويستأجروا بيتًا هناك لحين أنْ تهدأ الأوضاع هنا، وأشار العم كوركين على أبي، أنْ نرافق نحن أيضًا عائلته إلى طهران، لكن أبى رد عليه قائلًا: <<سنظل هنا مع مجاميع المهاجرين؛ لربما يكون هناك اتفاق سلامٍ ونعود إلى وطننا وأراضينا!>>

في تلك الأيام، كان هنالك، يوميًّا، أفرادًا ومجاميعَ من الأرمن الناجين من المجازر العثمانية، يصلون إلى مدينة سالماست الإيرانية من القرى والمدن الأرمنية المختلفة. وكان أبي يذهب يوميًّا مع العم كوركين؛ ليسمع الأخبار من القادمين الجدد ويحاول معرفة مصير زوجي وعائلة زوجي، لكن لم يحصل على أي خبرٍ يذكر عنه.

وبعد شهرين، شاعَ خبرٌ بأنَّ الناجين من المجازر سيؤخَذون إلى أرمينيا، وسُرَّ أبي بهذا الخبر وقال: <<إذا ذهبنا إلى أرمينيا، بعد فترةٍ وجيزةٍ، سيكون من السهل من هناك العبور والعودة إلى أراضينا>>.

فقام العم كوركين بتزويدنا بمؤونةٍ للطريق، فودعنا بيت العم كوركين، الذي استضافنا لشهرين في بيته، وخرجنا جميعًا مع باقي المهاجرين الأرمن حاملين آلامنا وذكرياتنا، وسرنا في موكبٍ كبيرٍ ضم الآلاف والآلاف من المهاجرين الناجين من المذابح.

كانت برفقتنا، كما قالوا، مجموعةً من الفدائيين، يقودون الموكب الكبير من الأمام والخلف. هذه المرة كان الظرف أفضل من قبلٍ، فكنا قد استجمعنا قوانا وتزودنا بالطعام الكافي، وكنا نسير في طريقٍ آمنةٍ نوعًا ما، كأننا كنا في نزهةٍ، كان اتجاهنا، على ما أذكر، نحو مدينة (أُورْمِيَا)؛ لنعبر من هناك إلى أرمينيا.

سرنا اليوم الأول، واليوم الثاني، لكن في اليوم الثالث، جاء أمرٌ بالتوقف والمكوث في وسط أرضٍ منبسطةٍ على مرآ البصر، كان توقفنا غير طبيعيٍّ، فانتشر الآلاف منا في مجاميعَ في ذلك المرج الواسع منتظرين الأوامر بالسير، لكنَّ الأمر لم يصدر، ولم نتحرك. فماذا حدث...؟

أخذ الجميع يقلقون ويتساءلون: <<لماذا توقفنا؟! لماذا لا نتقدم؟!>>

فطال مكوثنا هناك أكثر، لكن في المساء شاع خبرٌ مرعبٌ مفاده: أنَّ الأعداء العثمانيون قطعوا الطريق، ولديهم شروطٌ ليتركونا نعبر إلى أرمينيا، وانتشرت أخبارٌ أخرى، مفادها: <<أنَّ هناك مفاوضاتٌ تجري بين الفدائيين الأرمن وبين العثمانيين

الأعداء >>. فجاء أبي وقال لمجموعتنا: <<الوضع غير مطمئنٍ، لنقم وننسحب بهدوءٍ من المعسكر ونعود إلى مدينة سالماست؛ لأنْ لو هاجمنا الأتراك هنا في هذا المرج الفسيح، لن ينجو أحدٌ منا>>.

فعارض البعض أبي بشدةٍ وقالوا له:

<<لا... إذا انعزلنا عن هذا الجمع الكبير سنضيع في البراري، ونحن لا نعرف التكلم بلغة سكان هذه المنطقة، وربما تهاجمنا الحيوانات المفترسة. لننتظرْ حتى الصباح، لنرى ما الذي سيحدث>>...

وفي اليوم التالي أيضًا، ساد هدوءٌ تامٌّ على الوضع. لا توجد أية أخبارٍ. كان الآلاف على مرآ البصر يفترشون الأرض منتظرين. ما الذي سيحدث؟

وقُبيل الظهيرة، نهض الجميع؛ صدر أمرٌ بالنهوض للسير، لكنَّ قافلتنا الكبيرة مالتْ واتجهتْ بطريقٍ أخرى.

قال أبي متعجبًا: <<كأننا نرجع إلى الطريق، التي أتينا من خلالها!>>

فأجابه رجلٌ آخر، كان يسير مع ابنته وأبيه، قائلًا:

<<نعم يا أخي، يبدو أننا نذهب لمكانٍ آخر>>.

وانتشر خبرٌ بين الناس بسرعة البرق:

<<أن الاتفاق مع الأتراك فشل، وهم يغلقون الطريق أمامنا، ولن نستطيع العبور إلى أرمينيا>>.

فأخذتْ النسوة يبكين... والرجال يتساءلون:

<<إلى أين نذهب؟ إلى أين سيأخذوننا؟>>

وبعد مسيرة نصف يومٍ، عند حلول المساء، افترشنا الأرض للنوم. كان هناك سكونًا عجيبًا يخيّم على الأرض وفي السماء، لم يكن يُسمع إلا صوت بعض الأطفال الباكين بين الحين والآخر، كانت النجوم تتلألأ في السماء، ونام الجميع. لم يكونوا نيامًا. فكيف سينامون بهدوءٍ وكل فردٍ فيهم فقدَ الأهل والأعزاء؟

كيف سينامون بهدوءٍ، ومشاهد القتل والاغتصاب والوحشية والهمجية التركية تلاحقهم حتى في أحلامهم؟

كيف سينعمون بالسلام؟ من أين السلام؟ ألسنا بعد في خضم المعاناة؟

وفي الصباح، وقبل أن تسدل الشمس أشعتها على تلك الأرض، التي كان يفترشها الآلاف من المهاجرين الأرمن من بني جنسنا، سُمع صوتٌ قويٌّ من بعيدٍ. فبدأت التساؤلات: <<يا ترى، ما هذا الصوت؟ من أين يأتي؟!>>

قال أحدهم: <<إنه صوت بوقٍ! صوت بوقٍ عسكريٍّ!>>

قال الآخر: <<من أين يأتي؟>>

فقيل: "آه... نعم! إنهم الإنكليزيون البريطانيون!"

فقال أبي متسائلًا كباقي الناس:

<<من يكونون هؤلاء الإنكليز؟ هل هم أرمن؟ هل هم أتراك؟ هل هم إيرانيون؟>>

فأجاب آخر قائلًا:

<<لا...لا... إنهم أصدقاءُ، وسيحموننا، هم مسيحيون مثلنا>>.

كانت هذه أول مرةٍ نسمع فيها:

<<أنَّ هنالك ملةٌ يسمونهم (إنكليز)>>.

ما كان يهمنا من الموضوع هو أنهم ليسوا أعداءً لنا... فلم نعد نتحمل مجازرَ أخرى.

لكن بوادر الأمان والطمأنينة بدأت تلوح في الأفق على ما يبدو، فهؤلاء الأصدقاء الجدد قد قدموا طعامًا ساخنًا لكل المهاجرين الأرمن، وقاموا بمعالجة الجرحى، واعتنوا بالحوامل والأطفال، قدموا رعايةً جيدةً لنا.

لكن سرعان ما تحرك الموكب الكبير. إلى أين؟ لا أحد يعلم، ولا أحد يستطيع أنْ يسأل، لكن ما كان الجميع متأكدًا منه:

<<أنَّ وجهتنا الجديدة، هي ليست نحو أرمينيا، وليست نحو الوطن، إلى أراضينا وأملاكنا، لا، إننا نسير إلى وجهةٍ جديدةٍ... ما علينا سوى أنْ نسير، ونسير...>>.

نَخيلُ ٱلْعِرَاقِ بَشَائِرُ سَلَامٍ

وبعد مسيرةٍ دامت عدة أيام، دخلنا إلى أرضٍ غريبةٍ، كانت الأرض عبارةً عن أرضٍ منبسطةٍ ذات رمالٍ جافةٍ، خاليةً من الزرع، شبه قاحلةٍ، لم نكن قد رأينا مثلها من قبلٍ، وكان طقسها حارًا جدًا.

ولاحت من بعيدٍ، أشجارٌ عاليةٌ غريبة الشكل، لم نرَ مثلها من قبلٍ، جذوعها رشيقةٌ وطويلةٌ، ورأسها أخضر، تنسدل منه أوراقٌ مدببةٌ خضراء، تتدلى منها عناقيدُ كبيرةٌ صفراء.

فسألتُ والدِي قائلةً:

<<أبي، ما هذه الأشجار؟>>

صَمَتَ أبي لبرهةٍ، وهو يتمعن بالنظر إليها، ثم قال:

<<لا أعرف يا ابنتي>>.

فأجاب رجلٌ، كان يسير بقربنا مع ابنتَيه وقال:

<<هذه أشجار نخيلٍ، نخيل التمر>>.

وفي مسيرنا مررنا ببساتين نخيلٍ كثيرةٍ، كنا ننظر إلى أشجار النخيل باستغرابٍ وانبهارٍ، حتى وصلنا أخيرًا إلى مكانٍ، قد نُصِبَتْ فيه آلاف الخِيَم البيضاء، التي تحيط بها أسلاكٌ شائكةٌ وعددٌ كبيرٌ من الحراس الإنكليز المسلحين بالبنادق، فكانت كل تلك الخيم البيضاء منصوبةً في انتظارنا."

فشعرنا بنوع من الأمان الان، لكن نحن هنا اغراب ....

صورةٌ نادرةٌ لمعسكر بعقوبة للاجئين الأرمن -الناجين من مجازر العثمانيين-.

ألفصل الثالث

بَلَدٌ مِضْيَافٌ يَفْتَحُ ذِرَاعَيْه لَنَا

فأكملت جدتي يالدوز قص الأحداث عليَّ قائلةً:

"قلتُ لأبي: <<أبي، أبي، ما هذا المكان؟>>

قال: <<لا أعرف يا ابنتي. لابد أنَّ أصدقاءنا هؤلاء سيسمحون لنا بأنْ نسكن هنا مؤقتًا. أُمسُكي بيدَيْ أخوَيْكِ، فإنهما منهكان من التعب>>.

نعم، كنا جميعًا منهكين من التعب، قطعنا الطرق الوعرة والصعبة والصخرية ثم الرملية، ونحن حُفَاة القدمين.

قدما أبي المسكين كانتا تسيل دمًا، وقد امتزج دمه بالتراب والأعشاب، فلم تعد قدمه تُرى...

كنت أنا وأخواي نئن كباقي الناجين من التعب والإرهاق، والشقوق والقروح والجروح في أقدامنا ووجوهنا وأيادينا...

كنا كالآلاف من الناجين مثلنا، ملابسنا كانت رثةً وممزقةً بالكاد نستر بها أجسادنا، أخواي كانا شبه عريانين، وكانت الأوساخ تغطي أجسامنا، من الرأس حتى أخمص القدمين، وبشكلٍ عام كنا في حالٍ يرثى لها.

فأوقفَنا الإنكليز في طوابيرَ طويلةٍ أمام باب ذلك المخيم، كانت الطوابيرُ تكاد تكون لا نهايةَ لها. وبقينا الليل والنهار كله في الصف، في الصحراء ننتظر دورنا، حتى جاء دورنا في اليوم الثالث، للتسجيل والدخول إلى المعسكر.

فوقفتُ أنا وأبي أمام المسؤولين على التسجيل والتعداد.

كان أبي يحمل أخي الأكبر، هاكوب، وأنا أحمل أخي سركيس. فنظر لنا الأشخاص، الذين كانت مهمتهم تنظيمنا، نظروا إلينا، نظرة حزنٍ وأسفٍ على ما نحن فيه، فقد مر عليهم قبلنا في الطوابير الطويلة الآلاف مثلنا...

فسأل أحدهم أبي، عن طريق المترجم، وقال:

<<ما هو اسمك؟>>

رد أبي قائلًا: <<اسمي سركيس...>>

ثم سأله: <<من أين أنت؟>>

أجاب أبي: <<من قرية قونيس...>>

فسُئِلَ أبي: <<كم شخصًا رأيته يُقتل أو يموت أمامك في طريق هروبكم؟>>

قال أبي: <<لا أعرف الحساب، لكن الكثيرين ماتوا أمامي، ورأيتُ الكثيرين أمواتًا في طريقنا...>>

فسأله: <<أين عائلتك؟>>

فقال أبي مشيرًا إلينا: <<هؤلاء هم من تبقى من عائلتي...>>

وبعد هذه الأسئلة، أشار المتكلم لأحد الواقفين، وقادنا هذا الأخير إلى خيمةٍ لوحدنا، كانوا يُسكنون في كل خيمةٍ خمسةَ أشخاصٍ فقط، لكن نحن وضعونا في خيمةٍ لوحدنا. كان في كل خيمةٍ فراشًا نظيفًا وملابسَ جديدةً لنا. كان يقدَّم لنا طعامٌ ساخنٌ وماءٌ نظيفٌ، وكان هناك مستشفًى وكادرًا طبيًا.

هنا تنفسنا الصعداء، هنا عرفنا بأننا في بلدٍ يسمى العراق، وهذا المكان يسمى بعقوبة (مخيم بعقوبة للَّاجئين الأرمن).

في هذا المكان وهذا البلد، أصبحنا ننام مطمئنين. نرى أشجار النخيل من حولنا، فنشعر بالسلام والأمان والارتياح. هنا أكلنا التمر لأول مرةٍ.

يومًا بعد يومٍ، امتلأ المخيم بالناجين الأرمن، وأخذ الناس يندبون موتاهم. هنا بدأ الناجون يبحثون عن افراد عوائلهم وأبناء عمومتهم وأقاربهم بين آلاف الخيم.

كان أبي يَخرج من الصباح ويعود في المساء، يبحث بين الجموع لعله يجد أحدًا يعرفه من الأقارب...

وفي أحد الأيام خرج أبي للبحث والسؤال كما اعتاد أن يفعل، لكن في ذلك اليوم لم يعد لوحده.

هل تعرفُ بصحبة من رجع؟ هل تعرف من وجد؟"

فسألتُ جدتي: "من؟"

قالت: "وجد جدك مع أخويه الصغيرين.

عاد أبي في ذلك اليوم، وهو يمسك بيده زوجي هاروتيون. حيث وجده مع أخويه الصغيرين: بوغوس وآبراهام، فهم كانوا متروكين في خيمةٍ لوحدهم.

أنا لم أكن أعرف جدك، أي زوجي؛ لأنني لم أكن قد رأيته، وأما أخويه، فكنت أعرفهم؛ لأننا كنا نلعب سويةً في بيتهم.

وما إن دخلوا خيمتنا، وقع جدك وأخواه على ركبهم، واحتضنا أخوَيَّ وأبي، وبدؤوا يبكون. وأنا كنت جالسةً في زاوية الخيمة، أبكي وأصرخ من هناك:

<<قتلوا أمي بالرصاص... ليتهم قتلوني أنا...>>

في ذلك المعسكر كان على مدى أسابيعَ في كل خيمةٍ صوت عويلٍ وبكاءٍ. وأثناء الحديث مع هاروتيون جدك، علِمنا منه: أنَّ تلك العائلة الكبيرة، عائلة جدك، لم ينجُ منهم أحدٌ، إلا جدك وأخويه (بوغوس ١٢ سنةً، وآبراهام ١٠ سنواتٍ).

والآن أصبحنا نعيش جميعًا في خيمةٍ واحدةٍ. وأصبحتُ أنا، بالرغم من صغر سني، أُمًّا لأربعة أولادٍ أيتامٍ. كان زوجي وأبي ينامان في طرف الخيمة، وأنا والأولادَ ننام معًا في الطرف الآخر.

كان الجنود الإنكليز حريصين على نظافة المعسكر جدًا جدًا. فإذا ما وجدوا أوساخًا بقرب إحدى الخيم، كانوا يعاقبون سكان الخيمة بقسوةٍ شديدةٍ، كان المسؤولون على المعسكر يستخدمون القوة لأجل نشر الوعي الصحي؛ لأنهم كانوا يعرفون: أن كل

اللاجئين الناجين في المخيم، كانوا من القرويين، ولم نكن قد اعتدنا على دورات المياه الصحية الجماعية، أو الحمامات الجماعية...إلخ

ولم نكن قبلاً مِنْ سكان الخيم في مساحاتٍ صغيرةٍ. لكن ما عسى أنْ نفعل؟ هكذا آلت إليه الأمور بين يومٍ وليلةٍ؛ لذلك كانتا القسوة والمعاقبة السبيلين الوحيدين ليتقيَّد ويتعلم السكان الحفاظ على النظافة والشروط الصحية.

ومع ذلك، ومع كل تلك الصرامة والتشديد على النظافة، ما إنْ مر على وجودنا أربعون يومًا في معسكر بعقوبة، حتى انتشر وباءٌ بين الناس في المعسكر، وأصيب أبي بذلك المرض (التيفوئيد)، مثله مثل المئات من سكان المعسكر، فقام زوجي بأخذه إلى المستشفى.

كان المستشفى عبارةً عن مجموعةٍ من الخيم محاطةً بأسلاكٍ شائكةٍ وحراس في الطرف البعيد من المخيم، وكان فيه أشخاصًا، يرتدون ملابس بيضاء لم نشاهد مثلهم من قبل.

لكن قبل أنْ يذهب أبي إلى المستشفى، جمعَنا جميعًا ونادى عليَّ وقال:

<<تعالي يا ابنتي يالدوز>>.

ومَدَّ يده في ملابسه، وأخرج خمس ليرات ذهبٍ، وقال لزوجي هاروتيون:

<<هذه الوديعة أستودعُها عندك، لقد احتفظتُ بها سرًّا طوال الطريق، هي لولديَّ الاثنين -هاكوب وسركيس- أستودعها عندك. عندما تعودون إلى الوطن، فيكبرا ابناي، خذهما إلى بيتهما وأرضهما في قريتنا قونيس، وأعطي لكلٍّ منهما قطعتين من هذه الليرات الذهبية؛ ليشتريا بذورًا للأرض ويزرعاها، وليشتريا مواشٍ لهما؛ ليعودا ويعيشا في أرض أجدادهما بسلامٍ...

وأما الليرة الذهبية الخامسة فهي لك، هي هديةٌ مني لك، أنت الآن مسؤولٌ على هذه العائلة>>.

وأعطى أبي الليرات الذهبية لزوجي هاروتيون، (كنت انا مندهشة للغاية كيف! استطاع ابي طوال تلك الطريق الصعبة ان يحتفظ بتلك القطع الذهبية الخمسة في حزامه من دون ان يشعر به احد؟)

ثم ودَّعْناه وذهبا معًا، أبي وزوجي، إلى المستشفى. وبعد حين جاء زوجي راجعًا، أما أبي فقد طلبوا منه: أنْ يمكث في المستشفى.

وفي اليوم التالي، ذهبتُ لزيارة والدي مع أخويَّ، فوصلنا بالقرب من السياج الشائك للمستشفى، وكانت حول تلك الأسلاك الشائكة يتجمهر المئات من الناس، الذين جاؤوا مثلنا ليتفقدوا مرضاهم.

فشققتُ بعناءٍ طريقًا من بين الحشود، وأنا أمسك بيدَي أخويَّ، وما إنْ وصلت إلى السياج، أخذت أصرخ، فصرخت وصرخت:

<<أبي! أبي!>>

فأنا له أن يسمع صوتي! من بين صرخات مئات الزوار المتجمهرين حول تلك الأسلاك الشائكة مثلنا!

لكن لا أعرف كيف استطاع أبي أن يميز صوتي، وإذ به أخرجَ رأسه من شق الخيمة لرؤيتنا، وقد كان منهكًا، بالكاد لوح بيده لي من خلف ستار الخيمة. مشيرًا لنا:

<<اذهبوا! اذهبوا! أنا بخيرٍ...>>

فعدنا إلى خيمتنا.

وفي اليوم التالي ذهبنا أيضًا إلى المستشفى، أنا وأخواي وآبراهام أخو زوجي.

ووقفنا في نفس المكان، نصرخ من خارج السياج:

<<أبي! أبي!>> وأخواي يصرخان...

وكان المئات مثلنا يصرخون بأسماء مرضاهم...

وبقينا نصرخ لوقتٍ طويلٍ، فبدأتُ أبكي... وأخواي يبكيان...

فخرج رجلٌ بلباسٍ أبيضَ من وراء الخيمة، وجاء بالقرب منا، وأشار إليَّ بإيماء يديه ووجهه محاولًا أن يخبرني، بأن أبي قد مات.

فانحنى وأخذ حفنةً من التراب بيديه، ثم مد يده وسكب التراب على يدهِ، مشيرًا بأن أبي قد مات، وأنهم أخذوه ودفنوه... وأدار ظهره وذهب...

وقدم نفس الجواب للمئات من المجتمعين هناك، كان وباءً مميتًا...

فأخذتُ أضرب على رأسي ووجهي وأصرخ:

<<أين دفنتموه؟ أين وضعتموه؟ اريد ابي>>

لكن ليس من مجيبٍ.

وأخذت أنا وأخواي نتقلب على الأرض ونبكي، وكان مثلنا المئات، يندبون وينوحون على أعزائهم، فجاء زوجي من بعيدٍ وأخذَنا إلى الخيمة.

لقد مات أبي المسكين الفلاح المسالم، مات بعد أنْ عانى ما عاناه من آلام الفراق والحنين والخوف علينا.

ولم نعرف حتى أين وكيف دفنوه.

مات بعد أنْ أوصلنا إلى بر الأمان، وأعاد زوجي لي؛ ليحل مكانه...

مات أبي... وهو يحمل حنينًا لا يوصف لبيته وأرضه وبلده...

مات أبي... وأوكل مهمة رعايتنا إلى زوجي هاروتيون...

قُتلَت أمي أثناء هربنا، والآن مات أبي. كنت أنا في عمر ١٣ سنةً يومها، وزوجي ١٨ سنةً...

وكان ألمنا وحزننا على فقدان أبينا كبيرًا جدًا، جدًا.

فقمت بقص شعري الذهبي الطويل حزنًا على أبي، هكذا كانت العادة يومها. كان عارٌ على المرأة ونذيرُ شؤمٍ أنْ تقص شعرها، إلا إذا مات أحد الذكور من أهلها: أب، أخ، او وزوج.

تِرْحَالٌ لَا يَتَوَقَّفُ...

وبعد أن مكثنا في مخيم بعقوبة لمدةٍ لا أذكرها بالضبط، قام الإنكليز بنقلنا بالمراكب النهرية إلى بغداد، وثم من بغداد نقلونا بالقطار إلى منطقة تسمى نهر العمر. فأمضينا في هذه الرحلة الصعبة أكثر من ١٠ أيامٍ.

كان المخيم الجديد، الذي نُصب لنا، في مكانٍ صحراويٍّ على جرف نهرٍ، بالقرب من قرية، بالقرب من مدينة البصرة أيضًا. كان على نفس تنظيم مخيم بعقوبة. أيضًا، يوجد فيه مستشفًى، لكن في مخيم نهر العمر، أصبح شراء الطعام وإعداده بالكامل من مسؤولية اللاجئين، حيث وفروا مخابزَ عامةً ومطابخَ عامةً، تقوم كل عائلةٍ بالاهتمام بتوفير احتياجاتها بنفسها.

وفي أحد الأيام، دخلتْ خيمتنا لجنةٌ من الإنكليز مع مترجمٍ، حيث كانوا يسجلون أسماء وأعداد الأيتام في كل خيمةٍ. وفي تلك الساعة، لم يكن زوجي وأخواه في الخيمة معنا، حين دخلت تلك اللجنة إلى خيمتنا. كنت أنا وأخواي فقط موجودين، فقاموا بتسجيل أسماء أخويَّ: هاكوب وسركيس، ضمن أعداد الأيتام، ولم نعرف لماذا.

في هذه الفترة، جاءت سفينتان إلى نهر العمر ونقلت آلاف المهاجرين الأرمن من المخيم إلى أرمينيا، وكنا ننتظر دورنا لنذهب نحن أيضًا إلى أرمينيا.

وما هي إلا أيامًا معدودةً حتى حضر رجالٌ مسلحون، وأخذوا أخويَّ مني، مع أطفالٍ أيتامٍ كثيرين، فخرجت أنا وزوجي وراءهم، فأخذوهم إلى قرب النهر وجمعوهم هناك، ثم جاءت سفينةٌ أخرى، السفينة الثالثة، وبدل من إصعاد العوائل على متنها، أجبروا الأطفال، الأطفال الأيتام في الصعود إليها وقالوا بأنهم سيأخذون الأيتام إلى أرمينيا؛ ليقوموا هناك بالاعتناء بهم وتربيتهم.

كنت واقفة من على الرصيف أصرخ وأبكي وأنادي على أخويَّ، وكانت نساءٌ كثيراتٌ يبكين مثلي ويصرخن على أبنائهن وأخوتهن من الأيتام الناجين من المجازر العثمانية.

وكان زوجي هاروتيون، ممسكًا بي كي لا أسقط في النهر، وكان يقول لي:
<<دعيهما يذهبان، هناك سيثقفونهما، وسيعلمونهما، وسيضمنون مستقبلهما، وسيصيران رجليْن بمعنى الكلمة، وسنلحق نحن بهما على المركب الآخر(الرابع) ، الذي سيأتي بعد أسبوعٍ...>>
لكنني كنت غير مطمئنةٍ للموضوع، وكان إحساسٌ في قلبي يقول بأنني لن أراهما مرةً أخرى".

(فعلًا، لم ترى جدتي يالدوز أخويها: هاكوب وسركيس، بعد ذلك الوداع أبدًا، إلا بعد مرور ٤٥ سنةً، حين وصلتها رسالةٌ بأن أخويها تعلَّما في ملجأ أيتامٍ في أرمينيا وتزوجا، ووُلد لأخيها الأكبر -هاكوب- ولدان سماهما (هامليت) و(أدمون). والأخ الأصغر -سركيس- تزوج، ولكنه لم يُرزق بأطفالٍ، وقد اشتركا في الحرب العالمية الثانية ١٩٤٠-١٩٤٥م، كجنديين وقُتلا كلاهما في الجبهة الروسية الألمانية، أحدهما قُتل بلغمٍ أرضيٍ، والأخر بطلقةٍ في ظهره... كان الأخ الأكبر -هاكوب-، قد أخبر زوجته، بأنه لديه أختٌ في العراق اسمها يالدوز، وزوجها هاروتيون، وكان قد أوصى زوجته: "إن لم يعد هو من الحرب، عليها أن تبحث وتتصل بأخته وزوجها وتجدهما؛ ليعينوها على تربية ولديه ". فكان حزن جدتي يالدوز أكبر عندما وصلتها رسالةٌ عن طريق الكنيسة في عام ١٩٦٨م، تحمل خبر مقتل أخويها في الحرب العالمية الثانية، وتفاصيل عن حياة عائلتهم وعناوينهم. فوقعت مريضةً لأشهرٍ منهارةً عصبيًا. وما كان محزنًا أكثر هو أنها تلقت مع الرسالة صورةً لأخويها الشابين، وهما يحضنان بعضهما بعضًا. وكما قالت جدتي، كان الأخ الأكبر يشبه أباها تمامًا، كان نسخةً منه. وبعد سنين طويلةٍ في مطلع الثمانينيات، عندما تلقت جدتي دعوةً من ولدَي أخيها لزيارتهما في أرمينيا، ذهبت لرؤيتهما، وأخذاها إلى موقع المعركة، التي قُتل فيها أخويها، ودُفنا تحت نصبٍ تذكاريٍ في مقبرةٍ جماعيةٍ. قالت جدتي: "ضربتُ رأسي بذلك النصب وصرخت، حملتُكما على ظهري، وهربت بكما ليلًا ونهارًا؛ لأنقذكما من الموت. تحملتُ

الجوع؛ لتشبعا، وأنقذتكما من الأتراك الأشرار، لكنني لم أستطع من منعهم أن يأخذوكما مني بتلك السفينة المشؤومة. قُتل أهلنا ونحن تشردنا، وأنتما تيتمتما، وتمزقتْ أجسادكما، ودُفنتما في أرضٍ غريبةٍ. انهضْ يا هاكوب...! انهضْ يا سركيس...! حقولنا تنتظرنا، لا تتركاني لوحدي هرجع يومًا أزرع وأحصد فيها، يا ليتني متُّ معكما!)

فأكملت جدتي قائلةً: "وهكذا بالبكاء والعويل والصراخ، أخواي كانا من السفينة يصرخان:

<<يالدوز، لا تتركينا!>>

وأنا من على الرصيف كنت أصرخ:

<<لا أستطيع أن أرجعكما!>> حتى تحركتْ السفينة مبتعدةً عني.

عدنا إلى الخيمة، فلم آكل، ولم أشرب لأسبوعٍ كاملٍ حتى أشرفتُ على الموت. فقد فقدت عائلتي كلها:

أمي، أبي، أخويَّ... يا إلهي! إلى متى ستستمر مأساتنا؟

فجاء زوجي بعددٍ من النساء، فجلسن يهدئن من روعي، ووضعن الطعام والماء بالقوةِ في فمي...

وكنا جميعًا ننتظر مجيء السفينة الرابعة؛ لتأخذنا إلى أرمينيا، لكن تلك السفينة المنتظرة لم تأتِ أبدًا، أبدًا.

والأسوأ هو أن في يومٍ ما نهضنا، فوجدنا الإنكليز قد رحلوا آخذين معهم الأسلاك الشائكة والخيم غير المأهولة، التي نقلوا سكانها إلى أرمينيا، فبقي الباقون منا في الصحراء دون مساعدةٍ.

وهنا برز دور السيد (ليفون شاغويان) المدعو (بَاشَا).

فقام بتنظيم حاميةٍ ومراقبينَ للمعسكر من شباب المخيم، وكان هو يمتطي جواده ويخرج يوميًا برفقة الحامية؛ ليتفقد أحوال المعسكر من نظافةٍ وأمورٍ أخرى، كما

قام بافتتاح مدرسةٍ بالقرب من خيمته، وكان يهتم بأحوال الناس، وكان الكل يهابونه ويحترمونه...

في هذه الفترة، ترك البعض المخيم، وصنعوا لهم غرفًا من الطين أو الصفائح، كل شخصٍ كان يهتم بمعيشته.

لكن أيضًا، في هذه الفترة، التي لم تدم طويلًا، ملأ اليأس قلوب الكثيرين، وبات موضوع العودة إلى الوطن أمرًا ميؤوسًا منه. فأصبح المخيم دون رعايةٍ أو معيلٍ، وبات كل فردٍ مسؤولًا عن إعالة حياته وعائلته. فبدأ الناس يجدون أعمالًا لهم في المدن القريبة مثل البصرة، وينقلون عوائلهم إلى هناك. والبعض الآخر ذهب لمدنٍ أخرى للعمل وإيجاد قوته اليومي.

فجمع السيد ليفون شاغويان والملقب بـ(ليفون باشا شاغويان)، (وهو أحد القادة المخضرمين في إنقاذ مئات العوائل الأرمنية أثناء المجازر العثمانية، فهو شخصٌ مشهودٌ له بالشجاعة والبسالة والتفاني من أجل أبناء جلدته)، الأغلبية الباقية في معسكر اللاجئين، الذين كانوا من المهاجرين القرويين، وقال لهم:

<<سنذهب جميعًا إلى مكانٍ بالقرب من حدود فان (وان)، وسنؤسس هناك قريةً وقتيةً؛ لكي بعد أن تهدأ الأمور، نعبر إلى الوطن مرةً أخرى، ويذهب كلٌّ منكم إلى بيته ويرجع إلى أرضه وأملاكه>>.

فتجاوب البعض بالقبول بالفكرة والبعض الاخر رفضوها الجميع ...

واما نحن مع الكثيرين تركنا معسكر نهر العمر، واتجهنا بالقطار حاملين خيمنا معنا إلى شمال العراق، بالقرب من الجبال التركية في أرضٍ فسيحةٍ، ونصبنا خيمنا هناك، وقام ليفون باشا عينه، بتوزيع الأراضي علينا لبناء البيوت، وللزراعة أيضًا. وعانينا ما عانيناه، حتى قمنا ببناء منازلَ من طينٍ لنا.

كان تعداد الناس يومها هناك، بحسب ما سمعتُ، أكثر من أربعمئة عائلةٍ، بعضها مدمج مع بعض. وأسس المهاجرون الأرمن الناجون من مذابح العثمانيين قريةً هناك،

وأطلق عليها الباشا (ليفون شاغويان) اسمَ (هافريزك) أو (هافريز، وهو اسم أخته التي قُتلت أثناء الهجرة) ...

وقد قسم العمل بحسب الحِرف التي كنا قد امتهناها قبلًا. مَن كانوا مِن عوائلَ فلاحيةٍ أُعطيت لهم أراضٍ زراعيةٌ، ومن كانوا رعاةً فامتهنوا نفس الحرفة وهكذا...إلخ.

في قرية هافريزك، تعاون الناس، وبنوا لهم منازلَ، جدرانها من طينٍ، وسقفها من الخشب المغطى بالطين أيضًا، كالبيوت التي عشنا فيها في وطننا سابقًا. وبنينا حضائرَ للماشية، لكننا لم نكن نملك المواشي، فأخرج زوجي هاروتيون الليرة الذهبية، التي كانت مهداةً له من قِبل أبي، واشترى بها أغراضًا للبيت، وعدةً للعمل في الحقل، وملابسَ لنا، واضطر أن يأخذ من الوديعة، التي تركها أبي لأخويا عنده ، واشترى ثورًا؛ ليحرث به الأرض، وعشرة خرافٍ وبقرةً حلوبةً.

من السنة الأولى إلى السنة الرابعة، كانت المعيشة صعبةً جدًا في تلك القرية. اضطر الكثير من العوائل إلى ترك القرية، والذهاب إلى مدينة الموصل وكركوك وخانقين، وإلى النواحي الأخرى؛ ليجدوا لهم عَمَلاً لتدبير قوت عوائلهم.

الأرض التي أُعطيت لنا لنزرعها، كانت قاسيةً جدًا، كانت مليئةً بالصخور والأحجار، كانت مليئةً بالثعابين والعقاربَ، كانت عبارةً عن صحراء متروكةٍ لم يقطنها أحدٌ، أبدًا. كنا نخرج من شروق الشمس إلى غروبها، نحفر ونُخرج الحجارة من الأرض التي سنزرعها. نقلنا آلاف القطع الحجرية من أرضنا، وهكذا فعل الآخرون أيضًا. الأرض الجديدة لم تكن منتجةً كما كانت أراضينا في الوطن. نقلنا مخلفات الحيوانات بأيدينا ومزجناها بالتربة؛ لعلها تفلح وتعطي محصولًا، فحرثنا وزرعنا لكن النتيجةَ كانت سيئةً.

اضطر زوجي أن يقوم ببيع الليرة الثانية لشراء القمح للخبز، ولشراء بذورٍ جديدةٍ، ولشراء بقرةٍ أخرى للحليب. كما اضطر أن يفتح دكان بيعٍ صغير في منزلنا، ليتدبر أمور معيشتنا، وعندما قلت له:

<<هذه النقود هي لأخويَّ، هل نسيت وعدك لأبي؟>>

قال لي: <<إن لم أتصرف بالوديعة، فسنموت مع أطفالنا من الجوع. المبلغ دينٌ في رقبتي، سأسدده لأخوَيكِ بالتأكيد. حاليًا، لا خيارَ أمامي، أنتِ ترين الحال>>.

وبعد أربعة سنواتٍ من التعب والزرع والحصاد تحسنت الحال بعض الشيء، ووُلد لنا عددٌ من الأولاد، فماتوا بسبب الأمراض، حتى وُلدتْ عمتك ثم وُلد أبوك والآخرون.

في تلك السنين بدأ بعض الأكراد من الرعاة يعبرون الحدود بين هافريزك وتركيا بشكلٍ سهلٍ. فجاءنا خبرٌ أنَّ أخت جدكَ هاروتيون، وكان اسمها (ليان)، وهي الصغرى، لم تُقتل مع باقي أفراد العائلة، بل يبدو أن أحد القتلة خطفها ورباها، وقد اضطرت أن تتزوج من أحدهم هناك، وهي الآن تسكن في نفس بيتهم القديم في (بهجي سراي) (موكس)، وهي تدعونا بأن نعبر الحدود، وتضمن حمايتنا؛ لنعود إلى أراضينا.

لكن عندما سمع جدكَ هاروتيون هذا الخبر غضب جدًا، وقال للمرسال:

<<لو كانت قد ماتت لكان ذلك أفضل لها ولنا. بالنسبة لنا، هي مائتةٌ مع من ماتوا. لو سألتك قل لها:

<إخوتك قد ماتوا>>.

وبعد سنةٍ عادت (ليان) وأرسلت شخصًا آخر، حيث توسلت على لسانه بأن يسامحوها إخوتها؛ لأنه لم يكن لها أي ذنبٍ فيما جرى. لكن جدكَ هاروتيون وأخواه: آبراهام وبوغوس، جعلوا كلمتهم واحدةً، وقالوا للمرسال:

<<أخبرها ألا تقول بأنها حفيدة (مغسي هاروتيون). وقل لها ألا تبحث عنا أبدًا>>.

وبعد هذا المرسال الأخير، لم نسمع عنها أي شيءٍ فيما بعد.

وفي السنة الخامسة عشر لبقائنا في قرية هافريزك، ضَرَبَتْ إحدى الآفات الزراعية جميع حقول الحنطة والشعير، ولثلاث مواسمَ متتاليةٍ. فانتشر الفقر والقحط في القرية، وعلى إثرها تركتْ العديد من العوائل الأرمنية قرية هافريزك تقريبًا نصف سكانها تركوها، وذهبوا للعيش في المدن مثل كركوك، والموصل، وبغداد والعدد الأكبر ذهب إلى البصرة؛ بسبب صعوبة الحياة في قرية هافريزك".

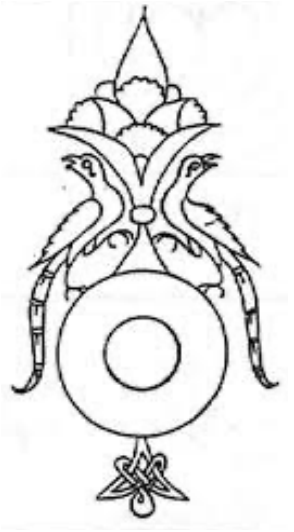

إِرْثٌ ثَمِينٌ:

كان صوت جدي جياشًا وجهورًا جدًا، فأداؤه لم يكن غناءً بمعنى الغناء، الذي نعرفه اليوم، بل كان لونًا خاصًا من الغناء، كان معروفًا ومنتشرًا بين سكان القرى الجبلية آن ذاك في الوطن المحتل.

فكان الناس قديمًا، قد اعتادوا على توثيق الأحداث المهمة والمآثر البطولية فرديةً كانت أم جماعيةً، بشكلٍ قصصيٍّ شعريٍّ غنائيٍّ في خليطٍ متجانسٍ رائعٍ سريع الحفظ؛ ليتناقله الجميع.

فكان شيئًا مميزًا لا يتكرر، أحسست بهذا التمييز، بعد أن حدثتني جدتي بكل تفاصيل ذلك الماضي المؤلم، وتلك المعاناة، التي مرت على تلك الفئة من البسطاء، الذين لم يكن لهم أي اهتمامات غير الاهتمام بمتطلبات الحياة اليومية.

كانوا بسطاء جدًا، ومخافة الله تملأ قلوبهم. فلم يكن يعنيهم أي شيءٍ سوى الإيمان القلبي البسيط بالمسيح -له كل المجد- وبتعاليم الإنجيل السماوية على قدر ما سمعوا منه، وكسب لقمة عيشهم بعرق جبينهم، والمحافظة على عوائلهم وتقاليدهم.

كان السواد الأعظم من القرويين غير مثقفين، لا يعرفون الحساب أو القراءة أو الكتابة. لا يعرفون سوى فعل الخير، ومحبة الآخرين، وإكرام الضيف، وطلب السلام لكل الناس. كيف لا، والإنجيل المقدس يوصيهم بمحبة الأعداء؟

كان أبي كثيرًا ما يثور ويغضب (إيجابيًا) على جدتي وجدي بسبب بساطتهم وطيبتهم وسلامة نواياهم، ومثله كانت عمتي الكبرى كيغانوش. فإنني إلى اليوم أذكر، عندما كنا في أحد الأيام مجتمعين في بيت جدي، ودار الحديث حول مآسي الهجرة والمجازر، التي مر بها جدي وجدتي، والذكريات القديمة،

تحدث جدي فأنصتَ إليه الجميع وهو يحدثنا قائلًا:

"أثناء الهجرة كنت جالسًا بالقرب من امرأةٍ كبيرة السن، قَتل الأتراك كل أفراد أسرتها، ولم يبقَ منهم على قيد الحياة إلا تلك المرأة العجوز. وبينما كنا جالسين على الأرض مع الآخرين؛ لنستريح لحين معاودة سير القافلة، مر بالقرب منا أحد الجنود الفدائيين، وهو يضع على بندقيته حربةً طويلةً. وكانت الحربة تلمع تحت ضوء الشمس، فسأل الفدائي تلك المرأة قائلًا:

<<يا أماه، هل أجد عندك شربة ماءٍ؟>>

فقالت: <<نعم يا بني، اجلس؛ لأعطيك ماءً>>.

وبينما أبرك الشاب ليشرب الماء. سألها مستفسرًا:

<<هل أنت لوحدك يا أمي؟ أين أهل بيتك؟>>

أجابت المرأة بحزنٍ ودموعٍ:

<<يا بني، لم يبقَ لي أحدٌ، كلهم قتلهم الأتراك...>>. وأخذتْ تبكي.

ثم لفت انتباه المرأة بريق الحربة فوق بندقية المقاتل،

فسألته قائلةً: <<ما هو هذا الشيء البراق الطويل، الذي يعلو رأس بندقيتك، يا بني؟>>

فأجابها الشاب: <<يا أماه، إن هذه حربةٌ".

فقالت: <<وماذا تفعل بها؟>>

فوقف المقاتل الشاب وقال:

<<انظري! أسحب البندقية للخلف، فأدفعها إلى الأمام، فتخترق هذه الحربة بطون الأتراك، فيموتون>>.

فردت المرأة العجوز عليه بحزنٍ:

<<لا... لا يا بني... لا... هم مساكينُ. أُترك الحساب لصاحب الحساب، وليوم الحساب...>>.

فثار غضب المقاتل الشاب ورد على المرأة العجوز بعنفٍ قائلًا:

<<ماذا دهاكِ يا امرأة؟ هل جننتِ؟ قتلوا عائلتك وشرودكِ، ولا تريدين الانتقام؟!>>"

وقال جدي: "فقفزتُ من مكاني، واحتضنت المقاتل الشاب، وقلت له:

<<هدئ من روعك يا أخي... أُتركها، فهي لا تعي ما تقول...>>".

(نعم، كان الأرمن مسيحيون، وهم مسالمون لأبعد حدٍّ، مسالمون يوم كانوا في وطنهم، ومسالمون يوم طردوهم وهجروهم، وذبحوهم، لم يكن لديهم سوى رفع عيونهم إلى السماء).

ويومها، عندما سمع والدي هذه القصة ثار هو أيضًا، وقال: "نعم! كنتم كالخراف جميعًا، لم تفكروا أن تشتروا أسلحةً؛ لتدافعوا بها عن أنفسكم، فهربتم. والعدو

هجم عليكم، وقتل من قتل واغتصب من اغتصب؛ لأنكم كنتم مسالمين، هكذا أنتم كنتم كلكم، كتلك المرأة العجوز..."

فقال والدي لجدي متسائلًا بروح الفكاهة: "كيف كنت في الجبال ستدافع عن قطيع خرافك لو هجم عليها ذئبٌ؟"

فرد جدي عليه قائلًا:

"بالعصا والحجارة والكلاب". فضحك الحضور وتغير الحديث إلى موضوعٍ آخر...

ألفصل الرابع

مِحْرَاثُ جَدّي

كنت أحب جدي وجدتي كثيرًا. وفي أحد الأيام صباحًا، بينما كان جدي كعادته يجلس في الأرجوحة، ذهبت؛ لأجلس إلى جانبه، فالتفت إليَّ وقال لي:

"لقد كبرت يا حفيدي، كبرت وأصبحت شابًا يا بني، كنتُ في سنك تمامًا يوم تزوجت بجدتك".

فابتسمتُ له خجلًا. كنت أحب مجالسة جدي وجدتي كثيرًا، كانا يتحدثان اللغة الأرمنية بلكنةٍ غريبةٍ. كانت لهجةً مختلفةً تمامًا عن اللهجة، التي تعلمناها والتي نتكلم بها نحن، فالبعض من مفرداتها بالكاد كنت أفهمها، لكنني كنت أحبها وأحاول التكلم بها أحيانًا، كانت لهجتهم هي اللهجة الأرمنية المنتشرة في فان وقراها.

سألت جدي عن السؤال، الذي راودني لوقتٍ طويلٍ، فقلت لجدي:

"جدي؟ هل كنت تنام في العراء في الجبال عندما كنتَ شابًا؟"

قال: "نعم، بالطبع كنت أنام في الجبال والمراعي في العراء لأسابيعَ طويلةٍ".

فسألته: "ألم تكن تخاف من النوم في البراري؟"

فأجاب جدي مبتسمًا: "لا، لم أكن أعرف الخوف أبدًا؛ لأنني منذ طفولتي، كنت أرافق أبي وجدي للجبال... لكن عندما أصبحت بعمر السادسة عشر، أصبحت أقود

قطيع الخراف لوحدي للرعي في الجبال، ففي الصيف إلى المراعي الصيفية، وفي أواخر الشتاء إلى المراعي الشتوية.

وكنت أحب الجبال والوديان والمراعي كثيرًا. وتعلمت أشياءً كثيرةً منها، فكنت أحب قطعان الخراف كثيرًا.

وأذكر أنه حتى في يوم زواجي، مع اني(لم أكن أعرف ما هو الزواج، كنت أعرف بأنه يجب على والديَّ أن يجلبا لبيتنا يدًا عاملةً بواسطة الزواج؛ لتشاركنا في أعمالنا اليومية...)،

اليوم الذي كان عرسي، ألح عليَّ والدي بأن أنزل من الجبل، وآتي للبيت؛ لأنه عرسي. وكنت غير راغبٍ بترك الجبل، لكن أمام إصرار والديَّ اضطررت للقدوم إلى المنزل، وما إن انتهت مراسيم الزواج في الكنيسة وخرجنا منها، حتى تركت العرس وأسرعت راكضًا إلى الجبال." وتأوه جدي وصمت لبرهةٍ، ثم قال بحزنٍ:

"وحتى عندما قُتلت عائلتي، كنت حينها في الجبال؛ لذلك استطعت النجاة..."

فأدهشني ما قاله جدي... فسألته:

"كيف هربت من الجبال...؟"

فقال جدي: "قبل سنةٍ من هجرتنا، في أحد الأيام بينما كنا مجتمعين في البيت، قال والدي لنا لقد اهترى محراثنا الخشبي، فهو قديمٌ جدًا، ولا يجدي تصليحه أي فائدةٍ، ويجب أن نشتري محراثًا أفضل ومن النوع الجديد، المصنوع من الحديد...

فرد جدي على أبي وقال:

<<إن المحراث الحديدي غالٍ جدًا>>.

فقال والدي: <<سنبيع ثورًا وبقرتين، وبثمنهم نذهب أنا و هاروتيون إلى (ديكراناكيرد) أي (ديار بكر، الحالية في تركيا)، ونشتري من هناك محراثًا حديديًا؛ ليحرث الأرض بشكلٍ أفضل وعمقٍ أكثر>>.

وبعد أخذ موافقة جدي، قام والدي ببيع الثور ومعه بقرتين، وكان هذا أمرًا محزنًا وصعبًا جدًا علينا. فقد بقيت أمي وجدتي تبكيان لأسبوعٍ على تلك الخسارة، خسارة الثور والبقرتين، لكن كان لابد أن نقدم تلك التضحية؛ ليتسنى لنا الحصول على محراثٍ من حديدٍ.

فحملنا المبلغ الذي كان عبارةً عن مجموعةٍ من القطع الفضية العثمانية، التي قامت والدتي بوضعها في كيس قماشٍ وخاطته داخل خُرجِ البغل من تحت؛ لكيلا يجده قطاع الطرق بسهولةٍ، ويسرقوه فيما لو قطعوا الطريق علينا.

وانطلقتُ أنا ووالدِي في رحلة سيرٍ دامت أيامًا كثيرةً، ربما سرنا ذهابًا لأسبوعٍ كاملٍ، ومكثنا هناك في العراء لثلاثة أيامٍ؛ لأنه لم نكن نعرف أحدًا في مدينة ديكراناكيرد، حتى اشترينا المحراث الجديد الحديدي من أحد أسواقها. وحملناه على ظهر البغل وعدنا سيرًا لأسبوعٍ كاملٍ إلى بيتنا في مدينة موكس.

كم كانت فرحة العائلة كبيرةً! كان شراؤنا لذلك المحراث بمثابة عرسٍ في العائلة. فذهب أبي، وجاء بالطبال وعازف الزُرنا (الة موسيقية هوائية نفخية من الخشب) ، واجتمع الأهل والأقارب؛ ليشاركونا بهذه الفرحة الكبرى. فشاركَنا الجميع بالرقص والغناء وتناول الطعام، معربين عن فرحتهم.

فكانت عائلتنا لأجيالٍ كثيرةٍ تستخدم محاريثَ خشبيةً، وها هي لأول مرةٍ تشتري محراثًا من حديدٍ. كانت في مدينتنا في موكس قلةً من المزارعين، الذين لديهم محاريثُ حديديةٌ؛ لأنها كانت غالية الثمن.

وفي اليوم التالي في الصباح الباكر، ذهب أبي إلى الكنيسة ورجع بصحبة الكاهن، وطلب من الكاهن أن يصلي ويطلب بركة الله على المحراث ليتبارك، فقام الكاهن بأداء واجبه، وبعد ذلك قدم له والدي ديكَين كهديةٍ.

ثم حمَل أبي والجيران، المحراث على ظهر الحمار. وانطلقنا جميعنا إلى الحقل، (جدي وأبي، جدتي، أخواتي، إخوتي، عماتي وأمي، وأنا وبعض الرجال والنسوة من الجيران)، وكان جدي يمسك بيده اليمنى عصًا، ويده اليسرى حبلًا مربوطًا بالثور الأول، الذي سيجر المحراث، وجدتي كذلك كانت تمسك بحبل الثور الثاني. وسرنا جميعًا بموكبٍ وكأنه موكب عرسٍ، وكانت أخواتي يقطفن الزهور ويضعنها على ظهر الحمار لتزيينه تعبيرًا عن فرحتهن في هذا اليوم...

وما إن وصلنا إلى الحقل، جاء العديد من الفلاحين، الذين شاهدوا موكبنا من بعيدٍ، وقدموا النصائح لأبي بخصوص طريقة شد واستعمال المحراث الثمين.

وبينما كان أبي وجدي منهمكَين في ربط المحراث إلى الثورين، سأل أحد الفلاحينَ جدي قائلًا:

<<مغسي هاروتيون، ماذا بعت لتشتري هذا المحراث الحديدي...؟>>

فأجابه جدي قائلًا: <<بعنا ثورًا وبقرتَين لأجل شراء هذا المحراث...>>

فجن جنون الرجل وبات يضرب كفيه ببعضهما قائلًا: أوَه...أوَاه... بعت ثورًا وبقرتين!!>>

بيع ثورٍ وبقرتيْن، كان يعتبر تضحيةً كبيرةً جدًا جدًا في ذلك الزمن. ومن كان يملك ثلاثة ثيرانٍ وأبقارًا، كان يُعَدُّ من الأثرياء.

فقال جدي: <<نعم اضطررنا لفعل ذلك؛ لنشتري هذا المحراث؛ لكي نحرث الأرض بشكلٍ أسرع وأعمق، ومساحةً أكبر>>.

فرد الرجل على جدي قائلًا: <<مباركٌ، مباركٌ... احتفظ به بشكلٍ جيدٍ وآمنٍ...>>

فقام أبي وجدي ومَن معهم بربط المحراث إلى الثورين، ومع النداء للثورين ومع الدعاء لله، ومخاطبة الثورين، جر الثورين المحراث وأبي ممسكٌ به...

فشق الأرض، وفاحَ عبق أرض أجدادي، ذلك العبق، ذلك العطر الفواح، الذي ما زلت إلى اليوم أتذكره، وكأنه مغروسٌ في أنفي.

لم أرَ قط أرضًا كتلك الأرض الخصبة، لم أرَ أرضًا معطاءةً كأرض أجدادي في موكس. آه...

" فتأوه جدي طويلًا... وتلألأت الدموع في عينيه، وهو يتذكر ذلك الصباح المشرق الجميل، وهو يشم ثرى أرضه ووطنه بينما المحراث الجديد يشق الأرض، ويقلب تربتها ويعدها لزرع الحنطة...

فصمت جدي لبرهةٍ ثم عاود الحديث قائلًا: "فكان ذلك اليوم يومَ سعدٍ وفرحٍ، أسرعتْ والدتي مع الفتيات وفرشن الأرض ببساطٍ حملنه معهن من البيت، وأخرجن الخبز، والجبن، واللبن، والحليب، فأسرع أخواي وملآ الجرار بالماء من منهلٍ قريبٍ من حقلنا... فأعددن مفرشَين للطعام، أحدهما للرجال والآخر بالقرب منه للنسوة والأطفال... وكم كان والدي مبتهجًا وهو يقود المحراث والثورين. كان وجهه يكاد ينير من السعادة. كيف لا، وقد تحقق حلم حياته بشراء هذا المحراث الحديدي؟

فنادى الرجال على أبي قائلين:

<<هوفسيب... هوفسيب... أوقِف الحرث وتعال؛ لتناول الفطار معنا>>.

لكن أبي من شدة انبهاره وفرحه بالمحراث الجديد، رفض التوقف عن حرث الأرض وقال: <<كلوا أنتم. أنا سآكل فيما بعد>>.

وفي المساء، فك أبي المحراث الحديدي، وقام بتنظيفه من التراب، ودهنَه بشحمٍ حيوانيٍ، وقمنا بحمله إلى البيت.

وما تبقى من ثمن بيع الثور والبقرتين، أذخره جدي وزوجني به".

فسألت جدي: "هل حقًا ذهبت للجبال يوم زواجك؟

" فقال جدي: "نعم، بالرغم من أن أبي وجدي طلبا مني أن أبقى لأكمل العرس، لكني فضَّلت أن أذهب إلى حيث تربض قطعان غنمنا في الشتاء".

"وكم بقيت هناك؟" فقال: "بقيت هناك لشهرٍ ونصف شهرٍ أو أقل بقليلٍ. بقيت حتى أرسل والدي في طلبي".

فسألت جدي: "لماذا أرسل والدك في طلبك؟"

فقال: "كان جدي قد توفي وأنا لم أعلم بوفاته؛ لأنه لم يكن هناك شخصًا قادمًا من المدينة إلى الجبال في تلك الفترة. لكن عندما وصل أحد الرعاة بقطيعه من المدينة إلى المراعي عندنا، قال لي: <<إن والدك يطلب منك العودة إلى المنزل على الفور>>.

وفي اليوم التالي تركت الرعاة ونزلت إلى بيتنا في مدينة موكس؛ لأن الراعي الذي جاء قد نقل أخبارًا سيئةً إلينا...

فعدت نازلًا إلى البيت، وكان كل شيءٍ سيئًا، فجدي قد مات والكل كان حزينًا. وفي اليوم التالي أبلغني أبي: <<إن هنالك أخبارٌ مفادها: أن المدينة ستتعرض لهجومٍ منظمٍ من قبل مجاميعَ الأتراك، والأكراد المنضمين إليهم، وهنالك أُسرٌ كثيرةٌ قد رحلت من موكس إلى مدينة فان، وهناك أسرٌ أخرى تستعد للرحيل سريعًا إلى مدينة فان أيضًا. ونحن لا نعرف ماذا نفعل يا بني! هل نرحل كالراحلين؟ أم ننتظر مع الأغلبية؟>>

فقلت لأبي: <<وماذا تقترح أنت يا أبي؟>>

فقال: <<أعتقد يجب أن ننتظر قليلًا؛ لنرى ماذا سيحدث. ربما تكون هذه الأخبار السيئة مجرد شائعاتٍ>>.

لكن الأجواء كانت غير مطمئنةٍ، فكان هناك جوًا من القلق والخوف والحذر وشائعات بين الجيران والأقارب، وكانوا يتناقلون أخبارًا عن أن العصابات قد داهمت قرًى أرمنيةً كثيرةً، فَقتلتْ مَن قَتلت وَهَربَ مَن هَربَ منهم.

فقال والدي: <<يا بني هاروتيون، اذهب غدًا واجلب زوجتك من بيت أبيها>>.

فقلت له: <<أنا لا أعرف الطريق يا أبي، فلتذهب جدتي أو نذهب معًا>>.

وعندما سأل والدي أمه، أي جدتي، عن الموضوع، قالت جدتي: <<يجب أن ننتظر إلى أن يعيدها أبوها إلينا، فهذه هي الأصول، لأنه لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على ذهابها إلى بيت أبيها>>. ومن جهة أخرى لايصح ان اخرج من المنزل وانا في حداد على ابيك.

فقال والدي لي: <<إذًا يجب أن نحتاط لأي شيءٍ سيءٍ وطارئٍ>>.

فقلت له: <<ماذا تريد أن نفعل؟>>

قال أبي: <<يجب أن نحرص على إخفاء المحراث؛ فهو يمثل ثروةً كبيرةً. فلنخفِه في مكانٍ آمنٍ، فلو اضطررنا لترك البيت لفترةٍ طويلةٍ، يبقى المحراث في أمانٍ؛ بحيث لو

دخل اللصوص إلى المنزل، لن يستطيعوا إيجاد المحراث، حتى نعود مرةً أخرى إلى منزلنا ونخرجه ونستعمله من جديدٍ>>.

فقلت لأبي: <<كما تريد يا أبي. فأين تريد أن نخفيه>>.

فقال أبي: <<تحت شجرة الجوز>>.

كانت في باحة بيتنا شجرة جوز عملاقةً، كانت كبيرةً بحيث تغطي السماء فوق منزلنا الكبير.

فتعاونا أنا ووالدي وإخوتي الصغار وقمنا بحفر حفرةٍ كبيرةٍ وعميقةٍ تحت شجرة الجوز تلك. استمرينا في حفرها يومين. ثم قام أبي بدهن المحراث بالشحم الذائب، ثم لفه بقطعة جلدٍ كبيرةٍ، وسمعته يكلم المحراث قائلًا:

<<لا تخف أيا موزيه (موزيه تعني الجميل، وكنا نطلق هذه الكلمة، التي هي ربما ليست من اللغة الأرمنية، لكن الجميع كان يستعملها، ككنايةٍ تطلق على الحيوانات والأشياء المهمة الجميلة). أيها الحبيب، لا تخف. لا تخف. إذا رحلنا فإننا سنعود سريعًا ونخرجك في وقتٍ قريبٍ. وستعود لتحرث الأرض. لا تخف، لن نتأخر في الرجوع، ولن تمكث في هذه الحفرة طويلًا>>.

هذه الكلمات كررها أبي مراتٍ عديدةً وهو يدهن المحراث، وهو يلفه بالجلد استعدادًا لدفنه. فبكلمات الشوق والمحبة هذه ودعنا محراثنا الثمين، الذي صار جزءًا من عائلتنا. وأيضًا، جاءت أمي بسجادةٍ، كانت معلقةً على حائط إحدى

الغرف، فقام أبي بلف المحراث بتلك السجادة أيضًا، وأنزلت أنا وأبي المحراث في الحفرة، التي أعددناها مسبقًا، ثم غطينا المحراث بالتراب، وأنزلنا إخوتي في الحفرة، فأخذوا يقفزون على التراب لدكه بقوةٍ.

ثم جلبتْ أمي كاروكًا (الكاروك هو عبارةٌ عن سريرٍ خشبيّ صغيرٍ يوضع فيه الأطفال الحديثي الولادة، وهو يتمايل بسهولةٍ يمينًا ويسارًا؛ لينام الطفل فيه بسرعةٍ وهدوءٍ). كان أبي قد وُضِعَ في هذا الكاروك وعماتي، وإخوتي وأخواتي وأنا، وكانت والدتي تحافظ عليه بشكلٍ جيدٍ لتضع فيه أحفادها.

فقامت أمي بلفه بملابسَ قديمةٍ، ووضعناه مع بعض الحاجات النحاسية في الحفرة. وسألت أبي: <<لماذا لم نضعه مع المحراث لندفنهم معًا؟>>

قال أبي: <<لا يا بني، إذا وجد اللصوص الحفرة، سيحفرون ويعثرون على الكاروك وعلى هذه الحاجات المعدنية، ولن يحفروا أعمق ليصلوا إلى المحراث، وبهذا سيبقى المحراث مؤمنًا إلى أن نعود>>.

وبعد ذلك غطينا الحفرة تمامًا بالتراب، وألقينا عليه رمادًا حارًا من التنور، لكي يقوم الرماد بتجفيف التراب، ولا يتميز المكان المحفور عن باقي أجزاء الأرض المحيطة بالشجرة...

ومكثتُ في البيت تقريبًا ثلاثة أيامٍ أخرى، لكن الحيرة وترقب الأخبار كانا يملآن قلوب الناس في المدينة، كنا نسمع في كل يومٍ أخبارًا تنتشر بين الناس عن قرًى أرمنيةٍ

سُلب وقُتل أهلها بالكامل. وتارةً نسمع أخبارًا من بعض المسافرين، الذين شاهدوا جثثًا مقطوعة الرأس على جوانب الطرق التي مروا بها.

ولكن أكثر خبرٍ هز المدينة، كان خبر أخذ العوائل الأرمنية قسرًا، وسوقهم في قوافلَ كبيرةٍ للإبادة في المناطق الغربية...

فكان الكبار مثل أبي والآخرين يقفون في مجاميعَ في أنحاء المدينة هنا وهناك، ليتناقلوا الأخبار ويحاولوا الاتفاق على شيءٍ ما. ومع ذلك، كان هناك في كل يومٍ عوائلَ وأفرادًا من الناجين الفارين، يَصلون من مناطقَ مختلفةٍ إلى مدينتنا، مدينة موكس، وكان رجال المدينة يحملون الطعام والشراب لهم، أو يستضيفونهم في بيوتهم، ويسمعون منهم الأخبار المحزنة، التي باتت تُشاع في كل مكانٍ.

الفكر العام الذي كان سائدًا: أنَّ هذه الأحداث والمجازر تقع على القرى الصغيرة المعزولة، وهي أعمال عصاباتٍ وقطاع طرقٍ لا أكثر. وكان الجميع يستبعد حدوث نفس الشيء في مدينة موكس، حتى أنَّ بعض القرى القريبة، هجرها أهلها واتجهوا إلى مدينة فان أو إلى مدينة موكس نفسها، لاستبعاد أن تصل أيدي القتلة الأتراك والأكراد إلى هذه المدن.

وبينما كنت لا أزال في البيت، دَق بابَنا مساءً أحدُ الباعة المتجولون الأكراد، حيث كان صديقًا للعائلة ومعروفًا من الجميع، فطلب أن يرى والدي، فظننا أنه جاء ليقدم العزاء لموت جدي، لكنه نقل أخبارًا سيئةً لأبي فقال له، بأنه أثناء تجواله اليومي قد مر بقرية قونيس، القرية التي تقطنها عشيرة زوجتي، وشاهد كيف أن بيوت الأرمن في

القرية قد أُحرقت، وقُتل من كان لا يزال باقيًا فيها، وسُرقت مواشيهم وممتلكاتهم، ولم يبقَ فيها أي أرمنيٍّ حيًا. وقال لأبي:

<<ألم تقل لي بأن أنسباءك كانوا يسكنون في تلك القرية؟>>

فقال له أبي: <<نعم>>. قال:

<<لا أعتقد بأنهم قد نجوا من تلك المجزرة>>.

وبمجرد سماعنا لهذا الخبر، بدأتْ جدتي وأمي وأخواتي يبكين، ويصرخن قائلاتٍ: <<لابد أن عروسنا قد قُتلت هي وأهلها>>.

فجاء الجيران على أثر أصوات البكاء والنحيب، وهكذا انتشر من بيتنا خبرٌ آخر مفاده: أنَّ قرية قونيس قُتل كل أهلها الأرمن، حتى بيت عروس (مغسي هاروتيون) وأهلها، وسُلبت ممتلكاتهم من قبل العصابات الكردية.

كانت كل الأخبار حزينةً، وجوٌ من الرعب كان سائدًا في كل مكانٍ، فالمزارعون كانوا كل يومٍ يتباحثون فيما بينهم متسائلين:

<<هل نزرع الحقول أم أننا سنرحل في هذا الموسم؟>>

فقال لي أبي: <<يا بني هاروتيون، اذهب إلى المراعي لتفقد الماشية، وإذا سمعنا أي شيءٍ سنرسل في طلبك فورًا>>.

ولأن قطعان ماشيتنا كانت تربض في الجبل؛ كنت قد تركتها على عجالةٍ هناك مع مواشي رعاةٍ أصدقاءَ، وكان هؤلاء الرعاة مِن الأكراد والأرمن من أهل موكس. فقلت لأبي: <<حسنًا يا أبي، غدًا، قبل شروق الشمس، سأرحل إلى المراعي>>.

آه، يا ليتني لم أرحل! يا ليتني بقيت ومتُّ معهم...

وكالعادة استيقظت من النوم باكرًا قبل شروق الشمس، من دون أن أوقظ أحدًا من أسرتي الكبيرة...

لم أكن أعرف: أنني لن أراهم ثانيةً. آه... أمي... أبي... أخواتي... عماتي... جدتي... إخوتي... لا أعلم هل أنا الذي رحلت أم هم من رحلوا؟!

فخرجت بهدوءٍ من دارنا، الدار التي لم أعرف أنني لن أعود إليها ثانيةً..."

فصمت جدي منكسًا رأسه والسيدارة على رأسه، (السيدارة هي عبارةٌ عن قبعةٍ عراقيةٍ تراثيةٍ، كانت تعتمر رؤوس الرجال من سكان بغداد بشكلٍ كبيرٍ إلى أواخر الثمانينيات).

فشعرت أن الألم الذي في قلب جدي ما زال إلى الآن متجددًا، ولم تنجح السنين الطويلة في شفاء ذلك الجرح العميق في قلبه فها هو ينزف الى اليوم.

فسكتُّ أنا أيضًا لبرهةٍ، حتى أن لملم جدي شتات أفكاره واحتضن آلامه، ليعاود الحديث مرةً أخرى، محاولًا تجاهل الألم.

ثم عاود جدي الحديث قائلًا:

"فوصلت عند الظهيرة إلى المراعي في الجبال. فقال لي أحد أصدقائي من الرعاة الأكراد: <<قبل يومين مَر بنا رجالٌ مسلحين، يبدو أنهم كانوا من الأكراد، وسألونا عن عائدية هذه القطعان.

فقلنا لهم: <إنها لنا ونحن أكراد>.

وسألونا: <هل يوجد رعاةٌ أرمن بينكم؟>

فقلنا لهم:<لا يوجد أرمن هنا في هذا الموسم>،.

وهكذا قمنا بحماية الرعاة الأرمن أصدقائنا الذين معنا>>.

فقال سمباط، وهو ابن جارنا وصديقي: <<كيف الحال في المدينة؟ كيف حال أهلي والأقارب؟>>

فقلت له: <<كلهم بخيرٍ، لكن الوضع لا يبشر بالخير>>.

فقال سمباط: <<نعم يا هاروتيون، أنا سآخذ الخراف وأرجع إلى موكس، لكنني أخاف أن تلتقيني تلك العصابات في الطريق. فماذا تقول لماذا لا نرجع معًا؟>>

فقلت له: <<دعنا نترك قطعاننا هنا، ونرجع آخذين معنا جميع الرعاة الأرمن الآخرين، فننزل إلى بيوتنا>>.

لكن عندما شاركنا الموضوع مع الرعاة الأرمن الآخرين، الكل رفضوا الفكرة، قائلين: <<لن يحدث أي شيءٍ، إنها أعمال عصاباتٍ صغيرةٍ وستنتهي بسرعةٍ>>.

ومكثت في الجبل تقريبًا أسبوعًا، وفي فجر أحد الأيام رأى الرعاة من بعيدٍ مجموعة خيالةٍ متجهين نحونا، فهربنا نحن الرعاة الأرمن واختبأنا ظنًا منا أنهم من العصابات العثمانية، لكن عند اقترابهم، اتضح لنا أنهم خمسة فدائيين أرمن، فنادوا علينا، فذهبنا بالقرب منهم، وعرضنا عليهم النزول للأكل والشرب.

فصرخ أحدهم في وجهنا قائلًا:

<<يا فتيةُ، هل أنتم مجانين؟ ماذا تفعلون هنا؟ أسرعوا بالهروب... إنها الحرب، التهجير والقتل والذبح، وأنتم هنا تحرسون المواشي؟>>

فقال أحد الرعاة، وكان اسمه دافيت: <<لماذا نهرب! ماذا حدث يا أخي؟>>

فرد عليه المقاتل الأرمني: <<لقد أُحرقت موكس منذ يومين، ودُمرت البيوت، وذُبح كل سكانها، وربما لم ينجُ منها إلا أنتم>>.

حينها عم السكوت فيما بيننا، ولم نعلم ماذا نقول من هول وقع الخبر علينا، فقال المقاتل الفدائي الأرمني: <<إياكم والعودة إلى المدينة! اتركوا كل شيءٍ، واهربوا إلى الجبال للنجاة بأنفسكم وبسرعةٍ. ولا تثقوا حتى بهؤلاء الرعاة الأكراد، الذين معكم. لا تخبروهم إلى أين أنتم ذاهبون>>.

ثم أسرع الفرسان الأرمن وانطلقوا إلى وجهةٍ غير معروفةٍ.

فقال أحد الرعاة: <<ربما كلامهم غير صحيحٍ أو مُبالغٌ فيه، ربما افتعلوا الخبر لكي نتوخى الحذر>>. فأصبحنا جميعًا في دوامة الحيرة بين تصديق الخبر وتكذيبه..!

فأخذ البعض منا يبكون ويصرخون حزنًا على اهلهم، فقرر الجميع أن يأخذوا قطعانهم، وينزلوا من الجبل إلى المدينة، غير مصدقين لما قاله اولائك الفرسان الأرمن لنا، فجميعنا لم نصدق أن تُحرق مدينةٌ مثل موكس، وتُسلب ويُقتَل كل سكانها... كيف يمكن حدوث ذلك؟ شيءٌ لا يستوعبه العقل!

وعلى الفور تحرك رفاقي الرعاة الأرمن، وكان عددهم ١٤ راعيًا، وهم شبانٌ من أقراني، قادوا قطعانَ ماشيتهم، وساروا نازلين من المرتفعات نحو بيوتهم، نحو مدينة موكس.

وأما أنا فمكثت لوحدي في الجبل مع أصدقائي الرعاة الأكراد، لأن والدي كان قد أوصاني: <<ألا أعود إلا عندما يرسل أحدًا في طلبي>>.

وأمستْ الساعات ثقيلةً وأنا متحيرٌ من أمري، والقلق على أهلي يطوح بي يمينًا ويسارًا، كأنني سفيةٌ في وسط عاصفةٍ هوجاءَ. تارةً أجلس، تارةً أركض وراء الخراف، لكنني بالحقيقة كنت أتراكض من الحزن، فقطيع الخراف تجاهلته تمامًا، مع أنني أتنقل من ورائه إلى قدامه، إلا أنني كنت أتساءل في داخلي:

<<هل أحذو حذوة أصدقائي وأعود بالقطيع إلى المدينة؟

أأذهب وألحق بالآخرين، أم أبقى في مكاني؟>>

ففي آخر لقاءٍ قال أبي لي: <<إن حدث شيءٌ ما، سنرسل وراءك لتأتي معنا>>.

وهو لم يرسل أحدًا إلى الآن...!

لكن قُبيل المساء، بينما كنت جالسًا على صخرةٍ، أحاول فك خيوط أفكاري المتشابكة، رفعت رأسي لوهلةٍ، فرأيت أحد الرعاة الأكراد من أصدقائنا، يجري من بعيد آتيًا نحوي.

وما إن وصل بالقرب مني حتى تلفت يمينًا ثم يسارًا، ومن شدة تعبه بالكاد قال لي: <<هاروتيون! هاروتيون! تعال بسرعةٍ ورائي...>>

فقلت له: <<أيا آزاد، ماذا حدث؟>>

كان كمن ضربته صاعقةً مهولةً، لم يستطع أن يكلمني سوى أنه أعاد نفس الجملة قائلًا: <<أرجوك هاروتيون، تعال بسرعةٍ...>>

فركض راجعًا من حيث أتى، فتركتُ القطيع وأسرعت بخطواتٍ سريعة متتبعًا خطاه، كمن يهرب من نمرٍ أو أسدٍ، ومن دون أن أدري ماذا ينتظرني.

وما إن وصلنا إلى قرب صخرةٍ كبيرةٍ، كانت قريبة من قطعانهم، رأيت الرعاة الأكراد من أصدقائنا، وكان عددهم ٦ رعاةٍ مجتمعين بجانب تلك الصخرة. وما إن اقتربنا، أفسحوا المجال لي، وإذ أرى أخويا...! أخي الأصغر مني: آبراهام، وأخي الأصغر منه: بوغوص، ممسكَين بأيدي بعضهما، منكبينِ على الأرض يبكيان ويصرخان كالمجانينَ!

فهرعت، فوقعت على ركبتَي أمامهما، وقلت:

<<ماذا حدث يا إخوتي؟ أخبراني..!

ماذا حدث..؟ تكلم يا آبراهام!>>

فأسرع أحد الرعاة وقدم كوزًا من الحليب لهما، ومسحوا وجههما بالماء... فما كان الخبر الذي نقلوه لي؟

آه... يا للفاجعة... آه... يا للخبر المشؤوم: <<قُتل جميع أفراد أسرتي، ولم ينجُ منهم، إلا هذين الحملَين الصغيرَين>>.

وعند سماع الخبر، صرخ أحد الرعاة الأكراد باللغة الكردية:

<<وا أسفاه... وا أسفاه... على عائلة مغسي هاروتيون، وا أسفاه..!>>

وجلس الرعاة أصدقاؤنا، وأخذوا يبكون معنا، مرثين أبي وعائلتنا. فكم أحبوا جدي، وكم أحبهم جدي وأبي، وأمضوا معهم ليالٍ طويلةً، يتسامرون في هذه المراعي ويتبادلون خبرات الرعي وأصوله.

وما إن تمالك أخي بوغوس أنفاسه، وجمع قواه (كان عمره ١٢ عامًا يومها)، حتى سألته: <<أخي كلمني! ماذا حدث هناك؟>>

فتحدث والدموع تنساب من عينيه، وهو يرتجف كريشةٍ في مهب ريحٍ:

<<يوم الأحد وصلتنا أخبارٌ مؤكدةٌ بأن العصابات التركية والكردية تتجه نحو مدينة موكس، من ثلاثة جهاتٍ، وأصبح الرحيل إلى مدينة فان مستحيلًا. وبات على السكان ملاقاة مصيرهم. ويوم الإثنين كان كل شيءٍ هادئًا. لكن ليلًا، قُبيل الفجر، سمعنا صوت إطلاق نارٍ وصراخٍ، فأسرع إلينا الجيران متسائلين عن سبب تلك الإطلاقات النارية. ومع شروق الشمس، سمعنا أصوات إطلاقات الرصاص، التي كانت تزداد وتقترب من أحيائنا. فقد قاومت وصدت بعض العوائل الأرمنية المغتصبين القتلة

بالأسلحة النارية البسيطة، التي كانت بحوزة البعض منهم، ثم ازداد إطلاق الرصاص أكثر، وكأنها حربٌ، فأسرع والدي إليَّ وإلى أخي، وطلب منا أن نصعد فوق سقف الحظيرة، ونختبئ هناك بين القش، وكنا نشاهد ما يحدث.

جاء المئات من الخيالة حاملين سيوفًا وبنادق وخناجر ومسدساتٍ. وهم يجرون خلفهم جثث رجالٍ مقتولين من أهل موكس.

فخرج والدي ليتحدث إليهم، فدخل أكثر من عشرين مسلحًا إلى بيتنا، والآخرون هشموا أبواب الجيران، وجروا الرجال إلى الطرق وقطعوا رؤوسهم. والبعض الذين دخلوا منزلنا، طَعنوا عماتنا الثلاثة بالخناجر عدة طعناتٍ، ونهبوا حليهن، ثم ذَبحوا أخواتنا الثلاثة أمام عيون أمي وأبي. وعندما أخذتْ أمي تصرخ، ضربها أحد الجنود بسيفٍ فشق بطنها. وأما أبي، فجروه إلى باب المنزل، وبأرجل الخيول قتلوا والدنا... وأما أختنا الطفلة الصغيرة (ليان)، فقد ربطة أحد القتلة يديها ورجليها ووضعها على حصانه وأخذها معه...>>

وما إن سمعتُ ما رواه أخي، حتى أصبحت كالجثة المحنظة لا أعلم هل أنا حيٌ أم ميتٌ؟

وقعتُ على الأرض من شدة الحزن والألم، وبدأ الرعاة يبكون معنا ويصرخون:

<<يا للهول! يا للإجرام! ماذا فعلوا ليلاقوا هذا المصير؟ ماذا فعلوا؟ ألا يخافون الله، يا مجرمين... آه...؟>>

فسأل أحدهم أخي بوغوس وقال له: <<وكيف نجوت أنت وأخوك؟>>

فأجاب أخي قائلًا: <<بعد حرق منزلنا والمنازل الأخرى، أصبح الدخان يغطي كل المحلة، فبقينا نحن الاثنين في مكاننا مختبئين فوق سقف الحظيرة. وجاء الأوغاد ودخلوا إلى الحظيرة بنية سرقة ما فيها، وكان هذا من حسن حظنا، حيث تسابقوا وتشاجروا فيما بينهم أثناء نهب وسرقة الحيوانات التي فيها، ولم يهتموا بالصعود إلى سقفها العالي للبحث عن الهاربين، فالحيوانت التي كانت في الحظيرة كانت تشكل ثروةً، وقد تسابق القتلة فيما بينهم في الإسراع والحصول على واحدةٍ منها أو اثنتين.

فبقينا نحن الاثنين ننتظر فوق سقف الحظيرة حتى حل الظلام، فنزلنا معًا بهدوءٍ، وسرنا تحت جنح الظلام كيلا يرانا أحدٌ. فخرجنا من المدينة، التي كان السكون ورائحة الموت يخيم عليها، ولا يُسمع فيها إلا نباح الكلاب.

فسرنا حتى بلغنا الحقول خارج المدينة، ومكثنا فيها بسكونٍ حتى أشرقت الشمس، وبعدها اتجهنا إلى هنا، لم نسر على الطريق، بل سرنا عبر الحقول متخفين بين الحشائش والأشجار، حتى وصلنا إلى الجبال، فأسرعنا إلى هنا>>.

وسألهم أحد الرعاة أيضًا قائلًا: <<وهل رأيتم في الطريق أصدقاءنا الرعاة؟ لقد نزلوا إلى المدينة بقطعانهم صباح هذا اليوم؟>>

فصمت أخي بوغوس وتكلم أخي آبراهام، وكان عمره ١٠ سنواتٍ، وقال:

<<نعم يا عماه، رأيناهم مقطوعي الرؤس بجانب الطريق، والقطعان مسروقةً. لم ينجُ منهم أحدٌ>>.

لم أعرف ما الذي يجب أن أقوله. هل من حسن حظي أنني لم أكن مع عائلتي؟ هل من حسن حظي أنني لم أذهب مع أصدقائي الرعاة صباح اليوم؟

لا أعرف، هل الرب حفظني لأجل غايةٍ..؟

فقام أحد الرعاة الأكراد، الذي كان يكبر جميع الحاضرين سنًا وقال لي: <<هاروتيون، إنَّ الموضوع ليس سهلًا، وأنت الآن المسؤول على أخويك، اترك الحزن واجمع قواك. قم وخذ أخويك، واهرب إلى الجبال فورًا، لأنَّ هؤلاء المجرمين حتمًا سيأتون إلى هنا مرارًا وتكرارًا، وربما هم الآن في الطريق إلى هنا. فانهض ونفض تراب حزنكَ، وأسرع بالهرب لتنجو بنفسك وأخويك>>.

كان كلامه صحيحًا، ولم يكن أمامي خيارًا آخر، فتركت قطعان الماشية بيد الرعاة الأكراد. وحملت أنا وأخواي ما استطعنا من حمله من طعامٍ وحليبٍ. وودعنا أصدقاءنا بدموعٍ وحزنٍ، وتركنا ثروتنا من المواشي لديهم، وسرت أنا وأخواي نحو الجبال، وتحديدًا نحو ذلك الجبل، الذي كنت أعرف كل أركانه ووديانه وصخوره بشكلٍ جيدٍ".

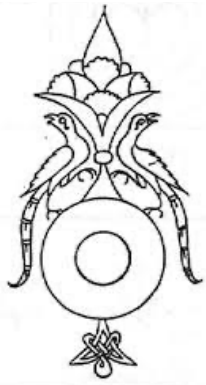

تَحْتَ نُجُومِ ٱلسَّمَاءِ

فاكمل جدي الحديث قائلا:

"سرنا الليل كله بهدوءٍ شديدٍ وتأنٍّ من دون أن نصدر صوتًا، حيث كان هدفي أن نختبئَ في الجبل، لأعود بين حينٍ وآخر إلى الرعاة إلى ماشيتنا لأتفقدها، لعلي أقودها إلى مراعٍ بعيدةٍ لا يصلها الأعداء! وبعد أن يعم السلام، أعود بها نازلًا إلى بيت أجدادي وأرضي، وأعيد ما يمكن إعادته. فلم يكن في نيتي الفرار إلى مكانٍ بعيدٍ بلا عودةٍ.

فسرت أنا وأخواي الليل كله، والدموع تنهمر من عيوننا، وقلبي ينزف دمًا من الألم على عائلتي ووالدَيَّ، وقُبيل الفجر وصلنا إلى كهفٍ صغيرٍ كنت أعرفه، ومكثنا فيه لنستريح وننام، ولكن هيهاتٍ أن ننام..!

أخواي: بوغوص وآبراهام الصغيران، كانا يبكيان ويرتجفان من شدة الخوف، ومن هول ما رأياه من مجازرَ. ولم أكن أنا أحسن حالٍ منهما، لكنني كنت أصبِّر نفسي ليهدأ أخواي. فقمت بوضع لفافة قماشٍ بين فكيهما، لكيلا يخرج صوت البكاء ويسمعنا أحدٌ؛ لأنَّ الجبل كان هادئًا جدًا.

وما هي إلا دقائقَ معدودةً حتى نام أخواي من شدة التعب والبكاء، وبقينا في الكهف حتى قبيل الظهيرة. وبعد الظهر سمعت صوتَ وقعاتِ أقدامٍ ثقيلةٍ من بعيدٍ، يتناثر صداها في المكان. وبحذرٍ شديدٍ وترقبٍ، أخرجت رأسي من الكهف، لأرى ما مصدر تلك الأصوات، وإذ بستة جنودٍ فدائيين أرمن، اثنين منهم مصابيْن، والأربعة الآخرون يعينون المصابيْن ليتمكنا من السير. فراقبتهم جيدًا حتى اقتربوا، وإذ بي تعرفت على

أحدهم، فإنه كان يتردد في الربيع على المراعي، ويطلب مني بعض اللبن والحليب لأجله ومجموعته. وكان اسمه (ساهاك)، ففرحتُ جدًا، وخرجت من كهفي وصرخت:

<<يا ساهاك..! أيا ساهاك..!>>

فتوقف وقال: <<من..؟ من الذي يناديني باسمي؟>>

فأسرعتُ وخرجت نازلًا إليهم وأعنتهم في الصعود إلى كهفنا ليستريحوا. وعلمت منه بأن مجموعتهم كانت غير قتاليةٍ، بل كانت تنقل مؤونةً وعتادًا من مكانٍ إلى آخر حين تعرضتْ لكمينٍ من قبل العصابات الكردية، وقُتل كل أفراد المجموعة بعد تكبيد الأعداء خسائرَ كبيرةٍ، وهم فقط من تبقى من مجموعتهم، وكانت حالة المصابَين حرجةً. حيث تعرضا لطعنٍ بالخناجر.

فقمتُ وخرجت على الفور من الكهف، وبحثت بين الصخور عن نبات القراص الأحمر. فوُجد بعضٌ منه، فجلبته ومزجته بالحليب المتبقي معنا وصنعت عصيدةً، فدهنت بها جروحهما، فشعرا على الفور بألمٍ قويٍّ لاذعٍ ثم خدرٍ وزوالٍ للألم.

فقمت بتقديم الحليب وبعض الطعام لهم من الكمية، التي حملناه معنا، وبينما كانوا يأكلون، قال لي المقاتل ساهاك: <<لماذا أنتم هنا؟>>

فقلت له: <<نحن هنا وسنظل هنا لحين أن تهدأ الأوضاع ونعود...>>

فقال لي: <<يا هاروتيون، إلى أين تريد أن تعود.!؟ هل تظن أن الموضوع لعبةٌ فتنتهي وتعود؟ هذه حرب إبادةٍ جماعيةٍ، هل تفهم؟ نهايتها بعيدةٌ، وإلى ذلك الحين يجب أن تحمي نفسك وأخويك. وأنت تعلم أن سبيل النجاة الوحيد للأرمن جميعًا هي مغادرة الأراضي العثمانية، يإما تبقون فتُبادوا، أو تهربون بعيدًا فتنجوا. لا خيار ثالث

أمامكم وأمامنا. لذلك لكي ننجوا من المجازر، يجب أن نعبر إلى إيران ومن إيران إلى أرمينيا. فكل الطرق الأخرى قد أغلقها العدو ليحاصرنا، فلا تفكر ببراءةٍ. إذا رآكم الأكراد أو الأتراك سيقتلونكم فورًا، وهم منتشرون في كل مكانٍ، فهذه العصابات تجول ليلًا ونهارًا كالكلاب باحثةً عن الأرمن الفارين ليقتلوهم، وأنت تريد أن تمكث في هذا الكهف!؟ حرصًا على قطعانكم...!!؟ هل جننت!....؟

إنهم يبيدوننا، يا هاروتيون، هل تعلم ماذا يعني يبيدوننا..؟ إنهم يريدون أن يقضوا على العرق الأرمني والجنس الأرمني بالكامل، وربما حاليًا من أهل موكس أنتم الثلاثة الوحيدون الباقون على قيد الحياة، على الأقل اليوم. أما ماذا سيحدث في الغد، فهذا لا يعرفه أحدٌ... إنهم يبيدوننا، لا يستبقون أحدًا منا. يجب أن تترك هذا المكان وهذه الأراضي بأسرع وقتٍ... وللعلم، حتى طريق الهروب إلى إيران قد يكون الآن بات شبه مغلقٍ، فهم يحاصروننا ليقضوا علينا. فاستفقْ، وانظر للموضوع بجدٍ، يا هاروتيون>>.

فلم أستطع أن أقول له أي شيءٍ. لان الآن عرفتُ، قد انتهى كل شيءٍ لنا على هذه الأراضي. يجب أن يكون هدفي: إنقاذ نفسي وإنقاذ أخويَّ، لكيلا يصل الأتراك إلى مبتغاهم بالقضاء على الجنس الأرمني بالكامل، لابد أن أضحي بالأرض والمراعي والقطعان والمحراث لننجوَ بأنفسنا أحياءً.

ولكن المشكلة كانت أن هذه المجموعة من الفدائيين التي كان يقودها الفدائي ساهاك كانوا تائهين، كانوا لا يعرفون الطريق إلى الحدود. وكانوا في حيرة من امرهم

فقلت لهم: <<لا تخافوا، أنا لدي خبرة في الاستدلال على الطرق عن طريق النجوم، وساستدل على الطريق لكن سنسلك طريقًا وعرة، بالعادة لا يسلكه احد من المسافرون إلى إيران ولا حتى القوافل التجارية، لذلك هنالك احتمالٌ كبيرٌ ألا يصادفنا في الطريق الجلادون أبدًا، أنا سأقودكم إلى إيران>>.

من ملامح وجوههم عرفت أنهم لم يثقوا كثيرًا بكلامي، وحتى أنا لم أكن واثقًا من كلامي؛ لأنني لم أسافر قبلًا عبر تلك الطرق إلى إيران، لكن لعدم الجدوى بالحصول على دليلٍ آخر، أبدوا موافقتهم.

وجميهما مكثنا ذلك النهار كله في الكهف، وما إن غابت الشمس وحل الظلام في الوادي والجبل، حتى خرجتُ وترقبت النجوم، التي كانت براقةً وواضحةً على عكس طبيعتها في ليالي ذلك الموسم. ثم رجعتُ ودخلت إلى الكهف، ودعوتهم للخروج والمسير.

كان هدفنا الوصول إلى حدود إيران، وهكذا تقدمنا عبر طرقٍ جبليةٍ وعرةٍ، ربما لم يسلكها أحدٌ غيرنا من قبل، فكنت أتقدم المجموعة ممسكًا بيد أخويَّ مراقبًا النجوم. كنا نسير ببطءٍ شديدٍ وحذرٍ لسببين: أولًا لعدم إثارة أية أصواتٍ تثير انتباه فرق الموت، التي تبحث عن الأرمن الناجين الفارين من المذابح، وثانيًا لأجل الجريحَين، اللذين بالكاد خفَّت آلامهما، وتوقف نزف الدم من جراحهما.

لم يكن معنا أي سلاحٍ سوى خناجر الجنود الستة، ولم يكن معنا أي أملٍ بالنجاة. كنا نسير بخطًى ثقيلةٍ وحذرةٍ. (والذين معي لم يكونوا واثقين بمقدرتي لقيادتهم إلى الوجهة، التي نرمي الذهاب إليها، لأنني كنت شابًا يافعًا، وليست لي خبرةً في الترحالات البرية. كنت أسمع أفرادَ المجموعةِ الخمسةَ وهم يهمسون بمخاوفهم بهدوءٍ في مسامع قائدهم ساهاك قائلين:

<<هل هذا الشاب يقودنا على الطريق الصحيح؟

هل فعلًا يعرف السير بحسب النجوم؟

إنه يافعٌ ليست لديه خبرةً كافيةً، فكيف نتبعه؟>>

لكن ساهاك كان يقول لهم: <<ليس لدينا بديلًا آخر نسير وراءه، لعله يفلح في إيصالنا إلى الحدود! .. انه حفيد مخسي هارتيون>>

فسرنا ذلك الليل كله، وقبيل الفجر حللنا في وادٍ كبيرٍ، وتخفَّينا بين الصخور الكبيرة المحاطة بالشجيرات البرية، أنا وأخواي اختبأنا معًا، وأما ساهاك ومجموعته، فقد انتشروا منفردين بين الصخور، لينام البعض ويراقب البعض الآخر المكان طوال النهار الى المساء.

كان معنا الشيء القليل من الطعام، بالكاد يكفينا يومًا واحدًا، القليل من الخبز الجاف واللبن الجاف، لا أكثر.

وما إن حل المساء وغابت الشمس وأسدل الظلام ستاره على الوادي، حتى تجمعنا وخرجنا من الوادي، ومرةً أخرى بدأنا نسير بهدوءٍ شديدٍ. وبعد أن سرنا لمسافةٍ طويلةٍ في الظلام الدامس، همس أحد الجنود قائلًا: <<توقفوا... توقفوا...>>

فتوقفنا واقتربنا إلى بعضنا البعض، وقال هامسًا لنا: <<نحن نسير بين الجثث..!>>

يا إلهي! لقد تعثر المتكلم بشيءٍ أثناء سيره، فلمسه بيديه وإذ هو جسد إنسانٍ، للوهلة الأولى ظنه شخصًا نائمًا... ولكن عندما أراد لمس وجهه، لم يجد الرأس؛ لأنه كان مقطوعَ الرأس!

يا للهول! ما الذي نحن فيه؟

فقال ساهاك، قائد المجموعة هامسًا لجنوده:

<<أخرجوا خناجركم، ولنمكثْ في مكانٍ ما هنا حتى الصباح، لعلنا نجد أسلحةً بالقرب من الجثث!>>

فرجعنا للخلف بخطًى ثقيلةٍ وحذرةٍ جدًا لمسافةٍ طويلةٍ، ونحن نحاول تلمس بعضنا البعض، ثم جلسنا معًا على الأرض. فنام أخواي بين يدي، وأما نحن الباقين فبقينا متيقضين، نحاول الإصغاء في وسط الظلام إلى أي صوتٍ قد يصدر من مكانٍ أو شيءٍ ما، فالإصغاء والاستماع كانا هما الحل الوحيد في وسط ذلك الظلام الدامس، الذي جعلنا متيقنين بأنه من الصعب أن يتربص أحدٌ بنا، أو يلقي القبض علينا مادمنا جالسين بهدوءٍ تحت ستار ذلك الليل الرهيب. وإذ أراد أحدٌ منا مخاطبة الآخر، كان عليه أن يهمس في أذنه بهدوءٍ، دون إصدار أي ضجيج قد يكشف مكان اختبائنا في ذلك الفناء الموحش.

ومع أول الفجر، قبل شروق الشمس، ما إن استطاعت عيوننا بعناءٍ تمييز ما حولنا رأينا أحجارًا وصخورًا كبيرةً بالقرب منا، وبخوفٍ وحذرٍ تحركنا تحت جنح الضوء الخافت، واختبأنا خلف تلك الصخور الكبيرة، ولم نتحرك أبدًا حتى أشرقت الشمس. فطلب قائد المجموعة ساهاك من اثنين من رفاقه أن يتبعاه لتفقد المكان. فتسللوا بين الصخور بحذرٍ وترقبٍ، وذهبوا لتقصي واستكشاف ما يوجد في تلك الأرض المنبسطة، التي قادتنا إليها أقدامنا يوم أمسٍ تحت جنح الظلام.

ثم عادوا بعد حين، وقال ساهاك:

<<هنالك قافلةٌ من المهاجرين الأرمن قد هُجِّروا قسرًا، وقد سارت القافلة وهي محروسةٌ من قبل الجنود الأتراك حتى وصلوا الى هذا المكان. يبدو أنهم أتو من مناطقَ بعيدةٍ، فمن ملابس النساء والرجال عرفت بأنهم من سكان المدن وليسوا قرويين، ويبدو أنهم عندما أوصلوهم إلى هذا المكان النائي، قاموا بالقضاء عليهم وإبادتهم جميعًا مرةً واحدةً. وما تعثرنا به ليلة أمسٍ كان جثةً واحدةً من عشرات الجثث المتناثرة هنا وهناك. ويبدو أن المجزرة قد وقعت قبل يومين أو أكثر، فبعض الجثث أكلتها المفترسات، والقافلة عبارةٌ عن رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ. ولا أعتقد بأن هناك أحياءٌ بينهم. وأيضًا، يبدو أن المكان آمنٌ، ولا يوجد في المكان عدوٌ ولا صديقًا>>.

فأمر القائد ساهاك رجاله: أن ينتشروا ويختبئوا بين الصخور، ويتناوبوا الحراسة والمراقبة، والباقين ينامون ويستريحون على أمل معاودة المسير ليلًا.

ومكثت أنا وأخواي خلف نفس الصخرة، من دون طعامٍ أو شرابٍ ونمنا نومًا عميقًا من شدة التعب والإعياء. واستفقنا قبيل المساء، وتجمعنا لنتحرك مع حلول الظلام، فجاء أحد المناوبين على الحراسة، وأخبر ساهاك قائلًا:

<<رأيت من بعيدٍ خمسةَ فرسانٍ مسلحين، ذهبوا شمالًا ثم عادوا بعد حينٍ في نفس الطريق، الذي ذهبوا منه ثم ابتعدوا>>.

فقال ساهاك: <<قد تكون هناك فرقةً من القتلةِ بالقرب من هذا المكان، وهؤلاء هم كشافةٌ فقط. يبدو أنه من الحكمة ألا نتحرك هذه الليلة، فلنمكثْ في أماكننا، وننتظر، ونراقب المكان حتى الغد>>.

وهذا كان رأي الجميع، فعدنا إلى أماكننا لنُمضي الليل في نفس المكان أيضًا، كانت تضاريس المكان قد منحت لنا نوعًا من الطمأنينة، فصعوبة تضاريس المكان والصخور الكبيرة المنتشة، كانت تحول دون اقتراب القتلة الأتراك أو غيرهم من ذلك المكان، لأنه كان من الصعب على الخيول أن تسير في ذلك المكان الوعر والمنحدر. وقبل أن نعود للاستراحة والنوم في أماكننا، أخرجتُ ما تبقى معنا من كسر الخبز واللبن الناشف، لنتقاسمه فيما بيننا، لكن ساهاك ورجاله رفضوا أن يأكلوا، بل قالوا: <<اعطِ ما تبقى معك لأخويك>>.

فما تبقى معي من طعامٍ كان بالكاد يكفي لسد رمق أخويَّ.

وفي اليوم التالي من الصباح، راقب الإخوة من مجوعة ساهاك المكان من عدة جهاتٍ حتى المساء، لكن على ما يبدو أنه لم يرَ أحدٌ منهم أي شيئ على طول مرمى البصر، طول النهار لم يروا أيَّ شيءٍ يثير الريبة والشك. وقبيل المغيب، اجتمعنا معًا، وقررنا أن نعاود المسير مع حلول الظلام، وما إن حل الظلام، أطلتُ النظر في النجوم لأستدرك الطريق، وأحدد وجهتنا. وتحت جنح الظلام المحدق وغطاءه الأسود الذي سادَ على المكان، وباتت حتى الصخور العملاقة لا تُرى، بدأنا السير بهدوءٍ وصمتٍ وترقبٍ.

فحملت أخي الأصغر آبراهام على ظهري، حتى نعبر المكان الذي تناثرت فوقه الجثث، كيلا يخاف ويصرخ، فينتبه إلينا أحدٌ ما، وحمل القائد ساهاك أخي بوغوص

على ظهره لنفس السبب. وبينما كنت أسير، تعثرتُ أنا لوحدي بأكثر من خمس جثثٍ، لكنني حافظت على رباط جائشي، لكيلا يخاف أخواي. وبينما كنا نسير بحذرٍ، تحت جنح الظلام لمس يدي أحد الجنود، وقال لي هامسًا في أذنِي:

<<أنزل أخاك من فوق ظهرك، فقد اجتزنا الجثث>>.

فأنزلتُ أخي من على ظهري، وأمسكت بيده، وعاودنا السير بخفةٍ وخوفٍ، نتلمس بعضنا بعضًا، كيلا نفترق فنتشتت ونضيع تحت جنح الظلام الحادق.

وسرنا لساعاتٍ طويلةٍ، حتى لمح أحد الجنود ضوءَ نارٍ خافتٍ من بعيدٍ يتلألأ في مكانٍ مرتفعٍ. فهمس ساهاك قائلًا لنا:

<<لنتوقفْ جميعًا، لربما يكون هناك حراسًا منتشرين في المكان يسمعون لخطواتنا في وسط سكون الليل الهادئ!>>

فقال أحدهم: <<تلمست صخورًا، تعالوا>>.

فاختبأنا بين الصخور في ذلك المكان.

وفي الصباح، شاهدنا من بعيدٍ مجموعةً من المسلحين القتلة، يتراوح عددهم بين ثلاثين وخمسةٍ وثلاثين فردًا، كانوا قد خيموا على مكانٍ مرتفعٍ هناك، ربما كانوا منذ أيامٍ يراقبون الجبال والوديان، متربصين بقوافلَ الأرمن الفارين من المجازر، ليبيدوهم. فبقي الرجال يراقبونهم من بعيدٍ في سكونٍ، لكن قبيل الظهر، تجمعوا القتلة معًا، وتحركوا بخيولهم مسرعين إلى وجهةٍ مجهولةٍ.

فمكثنا في أماكننا نترقب حتى المساء، فلم يرجع أولئك القتلة، و قبل حلول الليل، جاء أحد أفراد مجموعتنا بكميةٍ من الماء، الذي كان قد جمعها من بين الصخور، مع بعض نباتاتٍ كانت صالحةً للأكل، كان هو يعرفها، كانت تنمو في ذلك المكان. فأكلنا تلك النباتات، وشربنا الماء، وعند حلول الليل، عدنا مرةً أخرى للسير بحذرٍ شديدٍ بين تلك الوديان والجبال. وهكذا كان حالنا أيضًا لثلاثة أيامٍ، نختبئ في النهار، ونسير في الليل ببطءٍ وحذرٍ شديدَين.

وفي اليوم الثامن لمسيرتنا، وبينما كنت أقود المجموعة مستدلًا على الطريق بتعقب النجوم، أصبح أمامنا جبلًا عاليًا جدًا، لم يكن أمامنا أي طريقٍ سوى اجتياز ذلك الجبل. واجتياز لذلك الجبل كان يعني أن نتسلقه صاعدين الى فوق. وبينما كنا نتحاور في كيفية اجتياز الجبل، قال أحد أعضاء مجموعتنا:

<<لا يمكن أن نتسلق هذا الجبل ليلًا، لابد أن نمضي الليل هنا، وفي الصباح نتسلق الجبل في وضح النهار>>.

وكان رأيه صائبًا، فالجبل كانت صخوره كبيرةً وخطيرةً، لابد أن يكون التسلق برؤيةٍ واضحةٍ لمعالمه، لذلك أمضينا تلك الليلة مختبئين بين صخور الوادي.

لكن في تلك الليلة، تجمعت الغيوم! وبدأتِ السماء تمطر بغزارةٍ وقوةٍ لم أعهد لها من مثيلٍ. كان المطر ينهمر علينا مباشرةً من دون رحمةٍ، ولم يكن لنا أي مظلةٍ أو ساترٍ. وبقي المطر ينهمر حتى شروق الشمس، وأنا أحاول حماية أخوي بضم رأسيْهما تحت صدري، لكن دون جدوًى.

ومع شروق الشمس توقف المطر، لكن مع ليلةٍ ممطرةٍ كتلك الليلة، بات من المستحيل تسلق ذلك الجبل، فكل شيءٍ أضحى زلقًا. لكن مع ذلك، حاولنا رويدًا رويدًا ترك الوادي وصعود الجبل. فكنا نتسلق قليلًا بحذرٍ ونستريح قليلًا، كنت مضطرًا لحمل أخي آبراهام على ظهري، لأنه كان صغيرًا، ولم يمرْ بظروفٍ كهذه من قبل. فصعدنا لأكثر من ثلاثة ساعاتٍ، لكن المسافة لم تكن طويلةً؛ بل بسبب وعورة الجبل والطين الزلق. وإذا بنا نسمع أصوات إطلاقات نارٍ تأتي من الوادي، فصرخ ساهاك قائلًا لنا:

<<احموا أنفسكم، إنهم يطلقون النار علينا من الأسفل، يبدو أنهم شاهدونا، اختبئوا بين الصخور بسرعةٍ، بسرعةٍ!>>

فأسرعتُ وأخفيت أخويَّ بين الصخور الكبيرة، وحاولت أن ألقي بنظري إلى الأسفل لأرى، ماذا! يجري؟ فرأيت مجموعةً من المسلحين يمتطون الخيول، وقد صعدوا بخيولهم بعض الشيء نحو الجبل، وهم يطلقون النار علينا من بنادقهم، وكانت الإطلاقات تمر قريبةً منا جدًا، فهممت بأخذ أخويَّ، وتحركت نحو صخرةٍ أكبر كانت بالقرب منا، وما إن كُشف مكاني للعدو حتى سمعت صوت طقطقةٍ كبيرةٍ، وهي رصاصةٌ صُوبت نحوي، لكنها لم تصبني، بل اخترقت الكوب المعدني، الذي كان معلقًا في حزامي. يا إلهي! الرصاصة كانت قريبةً مني جدًا، بُعدَ إصبعين من خصري، لكن الله أنقذني من موتٍ محققٍ.

فاختبأنا في أماكننا دون حركةٍ، فأطلق الأوغاد علينا وابلًا من الرصاص، ثم ولوا أدراجهم مبتعدين عن الجبل؛ لأنه لم يكن بمقدور خيولهم تسلق ذلك الجبل العالي والزلق".

(كان جدي يحتفظ بذلك الكأس المعدني المثقوب إلى أواخر أيام حياته).

فأكمل جدي قائلًا:

"وما إن ابتعد شرهم عنا، حتى استمرينا في السير نحو أعلى الجبل، فوصلنا بحلول المساء إلى أحد أطرافه العليا، واسترحنا الليل بطوله هناك. وفي الصباح، عاودنا السير فوق الجبل بوضح النهار بأمانٍ؛ لأنه كان من المستحيل أن يكون القتلة قد تسلقوا ذلك الجبال الوعر؛ لذلك سرنا مسرعين.

وأمضينا الليل الثاني على الجبل أيضًا، وقبل شروق الشمس، بدأنا بالنزول بحذرٍ من الجبل لنكمل طريقنا، فنزلنا في وادٍ كبيرٍ كانت فيه عدة ينابيعَ للمياه. كان الوادي مليئًا بجثث القتلى الأرمن المدنيين العُزل، كان يبدو بأنهم أُخرجوا من مدنهم وقراهم، وقادوهم في مسيرةٍ طويلةٍ إلى هذا المكان ليبيدوهم.

فقال ساهاك قائد مجموعتنا: <<هؤلاء لم يُقتلوا بالرصاص، بل جمع الجلادون القتلةُ العديدَ من القوافل في فناء هذا الوادي، وسجنوهم هنا بلا طعامٍ لعدة أيامٍ، ومات منهم من مات من شدة الجوع، ومنهم من أكلوا الحشائش الضارة فماتوا؛ لأنه لا توجد آثار إطلاقاتٍ ناريةٍ إلا على بعض الجثث.

كانت أكثر جثث النساء عارياتٍ، وقد اغتُصبن. لقد جردوهن من ملابسهن وزينتهن، فكان العدد مهولًا جدًا، رأينا رجالًا، نساءً، أطفالًا وشيوخًا.

فلم نستطع حتى الاستراحة هناك؛ بسبب المنظر ورائحة الجثث المتعفنة، التي كانت تتصاعد و تملأ جو الوادي، بالكاد ملأنا قِرَبَنا ماءً من تلك الينابيع، وسرنا مسرعين.

فتركنا ذلك الوادي، الذي صار مقبرةً للمئات من بني قومنا. وما إن عبرنا الوادي، حتى ظهرت أمامنا أرضٌ منبسطةٌ وشاسعةٌ، مرجٌ مفتوحٌ. فأمرَنا ساهاك بأن ننتظر، ولا ندخل في المرج؛ لأنه سيصير من السهل ملاحظتنا. فاضطررنا للاختباء بين الأحراش العالية النهار كله.

وفي الليل، عاودنا السير لنجتاز ذلك المرج الواسع المكشوف. وبعد أن سرنا لساعاتٍ في وسط الظلام، استرعينا السمع، وإذا صوت مياهٍ وكأنه خرير نهرٍ كبيرٍ، وقادنا استطلاعي للنجوم إلى حافة نهرٍ كبيرٍ..."

أَبْكَمُ شُجَاعٌ

وأنا أستمع لجدي متشوقًا لمعرفة المزيد من قصة هروبه ونجاته، أكمل جدي حديثه قائلًا:

"وبينما كنا نتلمس في الظلام طريقنا، وإذ استوقفنا سور بستانٍ. نعم، كان هناك بستانًا قد صار فاصلاً بيننا وبين النهر. فقال رفاق ساهاك:

<<لنتوقفْ. لابد أن لهذا البستان صاحبٌ وكلاب حراسةٍ، وربما أشخاصٌ مسلحين يختبئون فيه. ومع ذلك، ولعدم وجود خيار اخر، اضطررنا للدخول و للاختباء في أحد أركان ذلك البستان، مفترشين الأرض بين شجيراته الكثيفة، و من شدة التعب والجوع أخذَنا نومٌ عميقٌ. وقُبيل الظهر، طلب ساهاك من أخي بوغوس أن يذهب بحذرٍ؛ لعله يجد شيئًا للأكل! فهو صغيرٌ، ولن يراه أحدٌ بسهولةٍ؛ وأيضًا ليستطلع لنا المكان.

وبالرغم من أنه كان خائفًا، لكنه بسبب الجوع ذهب. وبينما كنا مختبئين، بقلقٍ نترقب عودة أخي، قال أحد الرفاق: <<ها هو بوغوس قادمٌ...>>

فرجع وهو يحمل في أحضانه كميةً من التفاح الصغير، وقال:

<<إن المكان مهجورٌ تمامًا>>.

فخرجنا بحذرٍ، ووجدنا تفاحًا قديمًا متساقطًا بين الأشجار، وبعض الرمان الناشف أيضًا. ومن شدة جوعنا، التهمنا بسرعةٍ تلك الثمار القديمة المتيبسة.

وبعد ذلك أسرعنا معًا لاكتشاف المكان بحذرٍ، فوجدوا في الطرف الثاني من البستان، أكثر من أربعين جثةً لأشخاصٍ عزلٍ، تم قتل الرجال وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم، وأما النساء، فاغتُصبن وقُتلن بالخناجر.

وكان بالقرب منهم حصانًا مصابًا بجروحٍ يفترش الأرض وعلى وشك النفوق. فأسرع الإخوة وذبحوا الحصان، وقطعوا لحمه بخناجرهم لقطعٍ صغيرةٍ، وناولوا لكل منا كميةً منه لنأكل.

فقمنا بأكل اللحم وهو نيءٌ على غير عادتنا؛ لأننا خشينا أن نوقد نارًا لشواء اللحم؛ لكيلا يشعر بوجودنا أحدٌ. كان هذا اليوم الوحيد، الذي فيه نأكل ونُشبع بطوننا منذ أكثر من عشرة أيامٍ.

قال الإخوة، رفاق ساهاك:

<<مِن وضع الجثث يتضح بأن هذه المجزرة قد حدثت منذ وقتٍ قريبٍ، فهي لم تنتن بعد، لربما تم قتلهم نهار يوم أمسٍ. وليس مستبعدًا أن نفس القتلة، ما زالوا منتشرين في المنطقة يراقبون من يمرون ليقبضوا عليهم ويقتلوهم؛ لذلك، لابد أن نعاود السير ليلًا، فالليل يخفينا عن عيونهم>>.

فقلت لهم: <<بحسب استدراكي للطريق، يجب علينا أن نجتاز هذا النهر، الذي يجري بجانب البستان.>>

فقالوا: كيف سنجتازه ومياهه جارفةٌ، ولا نعرف عمقه، ولا يعرف أحدٌ منا السباحة؟>>

فقال قائد مجموعتنا ساهاك: <<علينا أثناء النهار، مراقبة الطرف الآخر من النهر، فهناك بستانٌ آخر كبيرٌ في الجرف الآخر>>.

فمكثنا مختبئين في طرف البستان، الذي بجانب النهر نراقب البستان الآخر، الذي على الضفة الثانية من النهر، لنتأكد من خلوه من الناس.

وعند الظهيرة، تحرك بعض الرجال منا ليجدوا شيئًا نتشبث به أثناء عبورنا النهر؛ لأنه لم يكن أحدٌ منا يعرف السباحة.

وبينما كانوا يصنعون طوفًا صغيرًا من بقايا الأشجار المقطعة والملقات في البستان، كنت أنا في الجانب الآخر أراقب السهل الواسع، الذي أمام البستان. فرأيت من بعيدٍ رجُلين على حصانَين قادمَين يسيران في المرج الكبير على مهلٍ.

فأسرعت نازلًا من بين أغصان الشجيرة، التي كنت مختبئًا فيها أراقب السهل. وعدت إلى مجموعتي مسرعًا، منهكًا، منقطع الأنفاس بالكاد أستطيع الكلام، وقلت لهم: <<هنالك أشخاصٌ قادمون>>.

فركض اثنين من المقاتلين وأخذا خناجرهما، وذهبا إلى طرف البستان لينظرا عن كثبٍ، من هم المقبلون نحونا؟ وأما نحن فخبأنا الطوف واختبأنا مع أخويَّ والآخرين تقرب بخوفٍ.

لكن تفاجئنا، عندما جاء أصدقاؤنا برفقة الغريبَين، فتبين بأنهما صاحبا البستان، فهما كانا رجلًا مع ابنه الأبكم (الأخرس). وكانا قد جاءا ليتفقدا بستانهما. فهما شبه أهملا العمل والاعتناء بالبستان، بسبب الاضطراب الأمني الحاصل في المنطقة، كانا يعرفان بأمر الإبادة الجماعية الأرمنية، فقال الرجل:

<<لابد أن تعبروا النهر>>.

فتحدثنا معه باللغة الكردية، فقلنا له:

<<أعددنا طوفًا ليقلنا إلى الطرف الآخر>>.

فابتسم الرجل وقال:

<<طوفًا؟ ألا ترون شدة التيارات؟ الطوف سيأخذكم بعيدًا إلى عمق المدن الأخرى، أو سيغرق وتغرقون أنتم أيضًا معه>>.

فسأله ساهاك: <<كيف نجتاز النهر إذًا؟>>

فسكت الرجل الوقور لبرهةٍ، ثم قال:

<<سيقودكم ولدي هذا إلى الطرف الثاني للنهر، سيأخذكم مع الحصانين ويعود أدراجه. ابني أبكم، لا يستطيع الكلام>>.

(كان هذا الرجل غاضبًا ومستاءً جدًا من سياسية الدولة وأنعدام الأمن، حيث قتل ابنه البكر في ضروف غامضة على يد رجال الامن الاتراك، لذلك كان يعتبر مساعدته لنا انتقامًا من الأتراك).

فوضعوا ما معهم من طعامٍ بسيطٍ أمامنا، وتشاركنا الأكل معًا، وانتظرنا حتى أقبل الليل، وحل الظلام. فطلب مني الرجل أن أُجلسَ أخويَّ على أحد الحصانين، وأربطَهما بحبلٍ إلى سرج الحصان. ووضعتُ قطعة قماشٍ ملفوفةً في حلقيهما، كيلا تصدر أصواتٌ منهما أثناء عبورنا النهر.

وانتشر باقي أعضاء مجموعتنا، وتمسكوا بالحصانين، وأنا مسكت بأخويَّ، وتقدم الشاب الأخرس ماسكًا ربط الحصانين، ودخل في مياه النهر.

فكان ابن الرجل صاحب البستان سباحًا ماهرًا، يعرف منذ صغره ذلك النهر، حيث كان قد عبر ذلك النهر ذهابًا وإيابًا بقدر شعر رأسه.

فلبرهةٍ ودعنا الرجل، وشكرناه جدًا. فدخل ابنه النهر والحصانين وراءه، وبالصلاة والدعاء لله نزلنا في مياه النهر الباردة جدًا.

يا لها من مياهٍ لا ترحم! كانت تياراته تجعلني أشعر وكأن هناك مجموعةٌ من الرجال يحاولون دفعي بعيدًا عن خط سيرنا، فكنت بالكاد أستطيع التمسك بسرج الحصان، محاورًا أخويَّ بهدوءٍ كيلا يبكيا. كانت المياه باردةً جدًا، أشلَّت أطرافنا. كانت هذه المرة الأولى في حياتي، التي أدخل فيها مياه نهرٍ. وتقدمنا في مياه النهر ونحن نريد الصراخ من هول التيار وشدته، وباتت المسافة للجرف الآخر وكأنها لا تنتهي. لا تنتهي تحت جنح ذلك الظلام الدامس. كان الشاب في المقدمة يسبح، والحصانان

يصارعان الأمواج خلفه، ونحن متشبثون بهما حتى وطأت أقدامنا أخيرًا الجرف الثاني للنهر. وبما أن الشاب كان لا يستطيع الكلام، فبالكاد تلمسته وقبَّلتُ رأسه وقلت له: <<شكرًا لإنقاذنا>>.

فما إن أنزلتُ أخويَّ عن ظهر الحصان، حتى اعتلى الشاب ظهر أحد الحصانين، وهو ممسكٌ برباط الآخر، وأسرع بدخول مياه النهر مرةً أخرى، ليرجع إلى أبيه بهدوءٍ، متوخيًا الحذر الشديد.

فحملت أخويَّ وأوقفتهما على حافة النهر، ودخلنا بهدوءٍ في البستان الثاني، وتوغلنا نحن جميعنا بين الشجيرات تحت جنح الظلام، واختبأنا في أماكنَ مختلفةٍ دون كلامٍ؛ لكيلا يسمعنا أحدٌ. وأما أنا فخلعتُ ملابسي وملابس أخويَّ المبتلة والمهترئة، وتركناها على الشجيرات لتجف وافترشنا الأرض. لكن البرد كان قارسًا جدًا، ونحن جميعًا كنا عراةً.

فحتضنت أخويَّ؛ لكي أدفئهما بجسمي، لكن جسمي كان عبارةً عن جثةٍ باردةٍ، لا حرارةَ فيها. كان لابد أن نصبر ونُمضي الليل منتظرين حتى الصباح. وقبيل الشروق، اجتمعت الغيوم فوقنا وأخذت تمطر بغزارةٍ، ونحن عراةٌ.

يا إلهي! فماذا نفعل ؟ماذا أفعل؟ فأخواي سيموتان من البرد، وربما سأموت أنا قبلهما. ماذا سأفعل؟

لا نستطيع إشعال نارٍ، وكيف سنشعل نارًا، وكل شيءٍ من حولنا مبتلٌ؟

فاضطررنا إلى ارتداء ملابسنا المبتلة، لنحمي أنفسنا من المطر، وأما المطر فاستمر لساعاتٍ طويلةٍ، حتى توقف وانقشعتِ الغيوم وظهرتِ الشمس. فتجمعنا معًا ثانيةً

ورأينا بعضنا البعض، لكننا اندهشنا عندما لم يجد قائد المجموعة ساهاك أحد رجاله، وكان اسمه (ترجون). فتساءلنا بصوتٍ خافتٍ فيما بيننا:

<<أين ترجون؟>>

فترجون كان أحد المقاتلين الفدائيين الستة، الذين أقودهم مع أخويَّ، وكان جريحًا بالكاد قد التأمت جراحه... أين هو!؟ أين ترجون..!

فقال ساهاك بحزنٍ وحيرةٍ:

<<آه، يا إلهي. لابد أنه انفلت عن الحصان وتيارات النهر أخذته ليلًا عندما كنا نعبر النهر، ولم يصرخ ولم يطلب النجدة، خوفا من أن ينتبه أحدٌ لوجودنا، على إثر صوته أثناء عبورنا النهر، لقد فقدنا أخانا ورفيقنا ترجون>>.

فسادَ جوٌ من الحزن فيما بيننا، وبكى أخي بوغوس وأخي آبراهام على الفدائي ترجون؛ لأنه كان يلاطفهما ويراقبهما، ويقدم محبته واهتمامه بهما كطفلَيْن.

فأسرعتُ لإخفات صوت أخويَّ، وقلت لهما:

<<عندما ننجوا بأنفسنا، سنجلس ونبكي معًا. نعم، سنبكي كثيرًا، فلدينا أشياءٌ كثيرةٌ يجب أن نتذكرها ونبكي من أجلها، والشاب الفدائي ترجون، الذي ضحى بحياته من أجلنا، سنبكي عليه أيضًا، ونصلي من أجله ونخلد ذكراه>>.

وما هي إلا ساعتين تقريبًا حتى عادت السماء تمطر مرةً أخرى بغزارةٍ، وانتظرنا طويلًا حتى يتوقف المطر، لكن دون جدوًى. المطر استمر طوال النهار والليل، ونحن نرتجف من شدة البرد بين شجيرات ذلك البستان.

وقبيل فجر اليوم التالي توقف المطر، وأشرقت شمسٌ قويةٌ، وشعرنا أخيرًا بالدفء، فخلعنا ملابسنا المشققة، ووضعناها على الشجيرات وانتظرنا حتى جفت تمامًا. وقبيل العصر ارتدينا ثيابنا، وذهب اثنين من الإخوة الجنود ليفقدا البستان، وعادا وهما يحملان في جعبهما كميةً من الفواكه الجافة القديمة المعلقة على الأشجار؛ لكنها كانت الخيار الوحيد لإشباع جوعنا.

وفي المساء قبل غروب الشمس، تحركنا إلى الطرف الآخر من البستان الكبير. فراقبت النجوم وحددت وجهتنا، فصعد اثنين من المقاتلين إلى قمة شجرة جوزٍ كبيرةٍ ليراقبا طريق ذهابنا. الليل كان فرصةً لإيجاد الأعداء، فبسبب البرد كان لابد أن يوقدوا نيرانًا للتدفئة، وأضواء النيران كانت تفضح أماكن تعسكرهم وتواجدهم. وبعد حينٍ نزلا وقالا:

<<هنالك أضواء نيرانٍ، لكنها بعيدةٌ عن طريق سيرنا. هيا، لننطلقْ!>>

وأخذنا نسير بهدوءٍ وسرعةٍ أيضًا، في وسط الظلام. كان الظلام دامسًا لدرجةٍ أنني لم أكن أرى يديَّ، ولم أكن قد أفلتُّ يديْ أخويَّ، لكيلا أضيعهما في وسط ذلك الظلام.

فمضينا نمشي إلى منتصف الليل تقريبًا أو أكثر، في وسط سهلٍ شاسعٍ، ومن بعيدٍ سمعنا أصوات بكاءِ أطفالٍ.

كانت تلك الأصوات تعلوا وتخفت، كان بين صراخٍ وصمتٍ، فهمس ساهاك في آذاننا قائلًا:

<<نحن نقترب من قافلةٍ، يإما قافلة ناجين يهربون مثلنا، أو قد يكونون قافلةً سجناء محروسةً من قبل الجلادين الأتراك، حيث يأخذونهم للموت والإبادة، فيجب أن نكون حذرين>>.

فقال أحدهم: <<لو كان معهم حراسًا، فلماذا لا يشعلون نيرانًا؟ هل يخافون؟>> فقال ساهاك: <<في بعض الأحيان يخشون مِن أن يروهم الفدائيون الأرمن، فينقضون عليهم، خاصةً إذا كانت أعدادهم قليلةً>>.

فقال أحد الفدائيين:

<<الأصوات أتت من الشمال، لنتجهْ نحو الجنوب، مبتعدين بقدر الأمكان منهم، فالأرض هنا أرضٌ سهلةٌ منبسطةٌ، ولو كان هناك جنودًا، فمع شروق الشمس سيكشفوننا ويقتلوننا>>.

فأخذنا نتحرك بخوفٍ وهدوءٍ نحو اليسار مبتعدين قدر الإمكان عن مصدر تلك الأصوات التي سمعناها.

ومشينا مسافةً ليست بالطويلة، حتى تلمسنا صخورًا كبيرةً، فأوجدنا لنا مآوٍ بين الصخور. فأخذتُ أخويَّ، وتلمست صخرةً كبيرةً وانطرحنا خلفها، والباقون انتشروا هم أيضًا وفعلوا مثلنا.

ولم نستطع النوم؛ لأننا شعرنا بأن الأتراك قريبون منا جدًا. فكنا بين الحين والآخر، نسمع صوت بكاء أطفالٍ وصراخ نساءٍ، تعلوا وتختفي، ويعم بعدها صمتٌ قاتلٌ..! ماذا هناك يا ترى؟

فمكثنا بخوفٍ ورعبٍ، وكانت مخاوفنا كبيرةً؛ لأننا كنا بلا سلاحٍ. فالمقاتلون الخمسة لم تكن معهم أسلحةً، فقال ساهاك بأن أثناء الكمين، الذي نُصب لهم بالقرب من مدينة موكس، قد اضطروا بعد نفاذ ذخيرتهم إلى إلقاء أسلحتهم والقتال بالخناجر مع الأتراك، وبعد ذلك اضطروا لحمل إخوتهم الجرحى وإبعادهم، لإنقاذهم.

لذلك مكثنا الليل كله ننتظر شروق الشمس. وفي الصباح، رأينا أنفسنا في مكانٍ مرتفعٍ بين الصخور. فإلى هنا قادتنا أقدامنا ليلًا. لكن لم نرَ أي شيءٍ أمامنا سوى السهول والتلال. وبينما كنا نترقب المكان بصمتٍ، سمعنا صوت إطلاقةِ رصاصٍ يخترق ذلك الصمت الموحش.

فأمر ساهاك واحدًا من رفقته المقاتلين، بأن يتسلل بهدوءٍ بين الصخور، بعيدًا بعض الشيء ويستطلع المكان.

فذهب أحد المقاتلين الأربعة، وعاد بعد برهةٍ مسرعًا، وهو بالكاد يقوى على الكلام، وقال: <<يا إخوة، كنا سنقع في موتٍ محققٍ ليلة أمسٍ!>>

فسأله رفقاؤه: <<لماذا؟ وكيف؟>>

قال: <<هناك قافلةٌ من العوائل الأرمنية على مسافةٍ قريبةٍ منا، يحيط بها عشرات الخيالة اللأتراك المسلحين. فماذا نفعل؟>>

فرد ساهاك قائد المجموعة وقال: <<خذني لأرى بعينيَّ، ونعود بسرعةٍ>>.

فذهبا معًا.

وتأخرا بعض الوقت، ثم عادا، وأخذا قسطًا من الراحة... ثم قال ساهاك:

<<إنها قافلةٌ كبيرةٌ، ربما فيها ستمئة أو سبعمئة شخصٍ: نساءٍ، رجالٍ، وأطفالٍ...إلخ، ويحيط بهم أكثر من مئتي مسلحٍ، وشاهدنا أكوامًا من الأطفال والنساء، وفهمنا أن كل طفلٍ كان يبكي، كانوا يطعنونه بالسكين لإسكاته. لذلك سمعنا تحت جنح الظلام ليلة أمسٍ تلك الأصوات، التي كانت تشق صمت الليل و وتخفت وتنتهي.

ويبدوا أنهم اغتصبوا بعض الفتيات أيضًا، وقتلوهن. وكما قلت:

<<لم يوقدوا نارًا؛ لكيلا يشعر الفدائيون الأرمن بوجودهم في هذا المكان المكشوف. يبدو أنهم لن يمكثوا طويلًا...>>

فعاد ساهاك ورفيقه، الذي معه إلى مراقبة القافلة، ونحن بقينا مختبئين بين الصخور. وما هي إلا ساعاتٍ قليلةٍ، حتى عادا مرةً أخرى وقالا بأن الجنود ساقوا من تبقى حيًا في القافلة، و ابتدؤوا يرحلون بعكس اتجاه سيرنا، يبدو أنهم كانوا ذاهبين نحو النهر، الذي جئنا منه، فلبثنا ننتظر حلول الظلام.

وما إن حل الظلام حتى استمرينا بالسير. سرنا الليل كله وأمضينا النهار بين الصخور على جبلٍ مرتفعٍ، وفي الليل نزلنا من الجبل وعاودنا السير الليل بطوله، حتى أُنهكت قوانا، فوصلنا قبيل الفجر إلى منخفضٍ كبيرٍ مليءٍ بالأشجار، فاختبأنا بين تلك الشجيرات، التي كانت تنتشر بكثافةٍ في ذلك المكان الشاسع. استلقيت على ظهري منهكًا وجائعًا، وفي أحضاني أخواي، اللذان بالكاد كانا يستطيعان التحرك من شدة الإعياء والجوع، ونظرت للنجوم، التي باتت تتلاشى مع ضوء الصباح. فصليت ودعوت إلى الله أن ينقذني وإخويَّ من هذا الوضع المزري والمؤلم.

كان كل شيءٍ بالنسبة لي مثل حلمٍ، كنت أتذكر الأيام التي مضت، كيف كنت في الجبال وفي المراعي أستلقي على ظهري وأراقب النجوم، وأنا أحرس قطعان خرافي، وأستمتع بصوتها.

تذكرت عائلتي الكبيرة، التي كانت تتكون من أربعة عشر فردًا، والآن لم يبقَ منا سوى أنا وأخويَّ الصغيريْن الجائعيْن، فكنت أقول:

<<يا رب، هل سننجوا نحن، أم سنلاقي نفس مصير باقي أفراد عائلتنا؟>>

وبقينا مختبئين النهار كله هناك، وفي الليل عاودنا السير، وأنا أقود المجموعة مترقبا النجوم. سرنا الليل كله، وقبيل الفجر أخذنا نسمع صوت خرير ماءٍ قويٍ يصدح في الفناء، فسرنا في اتجاه ذلك الصوت. ثم كلما اقتربنا، أخذنا نسمع أصواتًا أخرى مثل بكاء أطفالٍ. وأصواتُ صراخاتٍ رهيبةٍ كانت تُسمع من بعيدٍ.

فقال ساهاك لنا: <<لن نتقدم أكثر، لنختبئْ في مكانٍ ما>>.

فتلمسنا الصخور مما حولنا، وإذ بها صخورٌ كبيرةٌ، فاتخذناها ملاذًا لنا، وانتشرنا بينها لحين شروق الشمس. ومع شروق الشمس، كانت أصوات الصراخ تعلوا أكثر فأكثر، فأرسل ساهاك أحد رفاقه ليتفحص المكان. فذهب وعاد سريعًا وقال: <<يبدوا أننا كنا نسير في الإتجاه الصحيح حتى وصلنا للهدف!>>

فقال ساهاك متعجبًا: <<ماذا تقول؟!>>

فقال رفيقنا: <<نعم، يبدو أن الطرف الآخر من هذا التل العالي هو المعبر الأخير أمامنا. أنه النقطة، التي عندما نعبرها يقل تأثير الأعداء علينا، وملاحقتهم لنا>>.

وقال لساهاك: <<يا أخي، يجب أن تأتي وتتفحص المكان بنفسك فذلك أفضل>>.

فذهب ساهاك قائد المجموعة معه مسرعًا، وبعد ساعةٍ تقريبًا، عادا وكأنهما صُدِما من شيءٍ ما. كانا يائسَيْن، متحيرَيْن ومصدومَيْن. لا أعرف كيف أوصف حالتهما في تلك الساعة.

فأسرع الآخرون إليهما وقالوا لهما: <<ما بالكما؟ ماذا هناك؟ ماذا رأيتما؟!>>

فقالا لنا: <<اتركوا الأطفال هنا، واذهبوا وانظروا بأعينكم...>>

فتركت أخويَّ معهما، وذهبنا نحن الباقين متسللين بين الصخور، فتحركنا بحذرٍ حتى وصلنا الطرف الآخر من ذلك التل العالي والكبير، وراقبنا أسفل التل العالي بحذرٍ، واذ به عبارةٌ عن فوهة جحيمٍ كبيرٍ، أو ساحة معركةٍ حدثت فيها مجزرةٌ.. فيا لهول المنظر..!

رأيت في أسفل التلة العالية، الآلاف من الجثث المنتشرة في كل شبرٍ، فيه مدنيون عزل، وحُماةٌ فدائيون استشهدوا، وهم يصدون هجمات الأتراك على المدنيين العزل.

فماذا كان ذلك المكان؟"

كان ذلك المكان الكائن بين تلتين عاليتين وكبيرتين، يؤدي إلى جرف وادٍ، سماه الأرمن فيما بعد المجازر بـ(كودوراتس كالي، أي وادي المذابح، أو وادي الموت). كان عبارةً عن وادٍ عريضٍ تجري فيه مياه سيلٍ جارفٍ (ربما في ذلك الموسم فقط).

لكنه كان المعبر المائي الأخير للتوجه إلى الحدود الإيرانية، لذلك أغلب قوافل المهاجرين من الناجين الأرمن، من مذابح الأتراك، من مدن فان وقراها، والمدن القريبة، جميعهم توجهوا إلى ذلك المعبر، الذي ربما كان في باقي مواسم السنة عبارةً عن جدول مياهٍ صغيرٍ، يسهل عبوره على الجميع. لكن شاءت الصدفة: أن في ذلك الموسم كان ذلك الوادي هائجًا ومحبًا للدماء وللقتل، فكانت مياهه كالرصاص

وأمواجه كالثيران الهائجة، ومنسوب مياهه كان قد ارتفع جدًا، فوقف كعدوٍ ثانٍ في وجه الناجين المساكين.

وكانت العصابات التركية والكردية، قد توجهت إلى ذلك المعبر؛ لأنها عرفت بأنه المنفذ الوحيد المناسب لهروب الأرمن الناجين، فأصبح العدو الأول بالسلاح من خلفهم، والعدو الثاني، مياه هذا الوادي من أمامهم. فأين سيكون المفر؟ ...يا للمساكين!

فأكمل جدي راويًا:

"كانت مجاميع الفدائيين الأرمن المسلحين، الذين رافقوا قوافل الناجين الفارين الأرمن، قد وقفت من الخلف لتتصدى للعدو، وتعيق تقدمهم نحو المدنيين العزل بقدر المستطاع، لحين عبور الناس لذلك الوادي، لكن الخسائر كانت باهضةً بسبب رصاص العدو الكثيف، وبسبب مياه ذلك الوادي المميت، الذي كان يعيق تقدم الناس وعبورهم للضفة الأخرى.

لم يكن الأتراك فقط هم من يهاجم قوافل الأرمن المدنيين المنهكين الفارين من ديارهم، بل كان ذلك الوادي اللعين عدوًا آخر، يقف بالمرصاد أمام الناجين، فمَن نجى من رصاص الأتراك والأكراد، سقط ضحية مياه ذلك الوادي القاتل. فضد مَن كان سيقاتل الفدائيون الأرمن الأبطال؟ ضد الأعداء البشر، الذين لا يرحمون؟ أم ضد الطبيعة التي لا تترأف؟!

وبعد أن رأينا من فوق التلة. تلك المناظر المرهبة من بعيدٍ، عدنا بأدراجنا إلى حيث تركنا الآخرين، ثم قلنا بعضنا لبعضٍ: <<ماذا سنفعل؟>>

قال ساهاك: <<ربما ستصل قوافل أخرى، وربما لن تصل قوافلُ محميةٌ أخرى، وبهذا نكون نحن آخِر من وصل إلى هنا. يجب أن نعبر مياه هذا الوادي بأي ثمنٍ كان>>.

فقال أحد رفاقنا، واسمه افيديس:

<<مستحيلٌ أن نعبر هذه المياه، ألا تسمع صوت امواجه الهوجاء، وتلاطمها؟

إن صوتها يصل إلى هنا... هل سرنا كل هذه المسافة بأمانٍ ونجونا من كل الأخطار في مسيرنا الطويل، لنأتي ونلقي بأنفسنا في هذا الوادي في أحضان الموت؟ ونموت ونصبح من بين آلاف الجثث، التي عَلَقت بين ضفافه، والآلاف التي جرفتهم تياراته؟ لا، سيكون هذا جنونا وانتحارًا، أنا عن نفسي، أفضل الموت وأنا أصد رصاص العدو بصدري بدلًا من الموت منتحرًا>>.

كان هذا المكان بمثابة بابٍ مغلقٍ أمامنا، لا يمكن العبور منه أبدًا فمجرد المحاولة يعني الموت.

وقال فرد اخر من المجموعة، على ما أذكر كان اسمه صاموئيل: <<هذا الوادي ستزداد خطورته لو عبرناه ليلًا، إذ كنا سنعبره فيجب أن نعبره في النهار>>.

فرد عليه رفيقه، واسمه كان دانيال: <<نعم، إن كنا سنعبره، إذًا يجب أن ندخل المياه بوضح النهار، فهذا سيكون أفضل، مع إن فرصة نجاتنا معدومةٌ>>.

ثم صمت الجميع، وبلطفٍ قام ساهاك، وأخذني على جنبٍ من المجموعة وقال لي: <<يا هاروتيون، أنت كبيرٌ، ربما تنجح بعبور مياه هذا الوادي، لكن أخويْك صغيران، لا فرصة لنجاتهم، ربما من الحكمة أن تتركهما هناك مع الأطفال، فربما تُكتب لهما النجاة، وربما يأتي شخصٌ ويأخذهما، فلو دخلا المياه سيجرونك معهما، فتموتون أنتم الثلاثة معًا>>.

حين سمعتُ هذا الكلام العقلاني، اسودَ النهار في عينَي. مات أهلي وأقاربي جميعًا. والآن أرسل أخويَّ للمجهول..؟ فقلت له بصوتٍ أليمٍ:

<<لا..! يإما نعيش معًا... أو نموت معًا، أنا وأخويَّ>>.

فقال: <<أنا أكبرك سنًا، وقد مررت بظروفٍ كثيرةٍ، ولي خبرةٌ أكثر في الحياة، لذلك أعطيتك هذه النصيحة، ربما تكون غير إنسانيةٍ، لكن في موقف كهذا هي الحل الوحيد، ومع ذلك فالأمر متروكٌ لك يا أخي>>.

فقرر ساهاك أن ننتظر ذلك اليوم أيضًا مختبئين في أماكننا، دون أن نذهب إلى حافة الوادي للعبور. فقد خشينا أن تكون هناك مجموعاتٍ من المجرمين الأتراك والأكراد، لا يزالون مختبئين بالقرب من الوادي، يطلقون النار على كل حيٍّ يقترب من مياه الوادي، محاولًا عبوره.

فأرسل ساهاك اثنين من رفاقه ليراقبا الوادي والتلال المحيطة به، وأما هو ورفيقاه الآخَرِيْن، وأنا وأخواي، فاتخذنا لنا مخابئَ بين الصخور، وحاولنا النوم لنتغلب على الجوع، الذي كان يكاد أن يقتلنا.

لكن لم نستطع النوم، فأصوات البكاء، بكاء الأطفال كان صداها يعلوا ويملأ الوادي والجبال والتلال، فكان بالقرب من حافة مياه الوادي أشجارًا بريةً متناثرةً، وقد تركتِ الأمهات، تحت تلك الأشجار وبين الصخور، مئات الأطفال خوفًا عليهم من مياه الوادي. وكان هناك الكثير من الأطفال، وقد قُتلت أمهاتهم، وبقي الأطفال بقرب جثثهن ينتظرون الموت.

كان الجوع والعطش والجروح المختلفة تمزق هؤلاء الأطفال. فكان الأحياء منهم يصرخون ويبكون ويتلوون على الأرض. بالإضافة لهم، كان هناك الحوامل والشيوخ والعجائز، الذين لم يقووا على عبور مياه الوادي، فتركهم ذووهم هناك، أو هم بقوا هناك ينتظرون مصيرهم المحتوم.

وبالإضافة لهذا كله، كانت رائحة الجثث المنتنة، تملأ الوادي وتنقلها الرياح في كل أرجاء الوادي، فقوافل الأرمن الفارَّة، التي كانت تحاول عبور الوادي (وادي الموت، كودوراتس كلي) قد بدأت تصل إلى هذا المكان قبل أسابيع، وكانت تتعرض لهجمات الأتراك ومجاميع الأكراد مراتٍ عدةً يوميًا، وربما نحن آخِر مجموعةٍ تصل إلى هذا المكان المشؤوم.

وقبيل الظهر، رجع المقاتلان، اللذان كانا يراقبان الوادي، فقالا بأنهما شاهدا عشرة رجالٍ وخمس نساءٍ، جاؤوا مسرعين، وألقوا بأنفسهم في مياه الوادي ليعبروا المياه، ولم يطلق أحدٌ النار عليهم؛ لأن مياه الوادي جرفتهم على الفور.

فقال ساهاك: <<حسنًا، يبدو أن العصابات التركية، التي كانت قد هاجمت القوافل الأرمنية في هذا المكان، قد انسحبت لسببٍ أو لآخَر، لربما نفذ عتادهم أو لم يستطيعوا البقاء في هذا المكان، الذي تنتشر فيه رائحة جثث الموتى لمسافاتٍ طويلةٍ، فرحلوا إلى أماكن أبعد؛ ليقطعوا الطرق على القوافل القادمة، لذلك يمكننا اليوم العبور. هيا بنا، لنذهبْ>>."

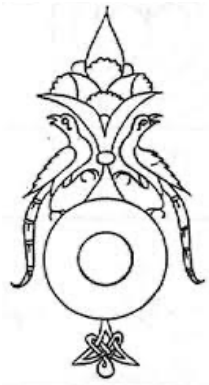

ألفصل الخامس

وَدَاعًا يَا وَطَنِي

فأكمل جدي قصته الأليمة والمشوقة قائلًا:

"لم أرغب أن يرى أخواي مناظر الموتى، فقلت لساهاك قائد المجموعة:

<<لا أريد أن يرى أخواي مشاهد الجثث والقتلى في ذلك الممر الطويل، الذي يجب أن نمر به لنذهبَ لحافة المياه>>.

ففك ساهاك حزامًا قماشيًا كان يلفه على خصره، وقصه إلى نصفين بخنجره، وقال: <<عندما نقترب قم بتعصيب أعين أخويك به>>.

فاجتمعنا معًا، وسرنا بحذرٍ متلفتين يمينًا ويسارًا في طريقنا نحو الوادي. وكانت أصوات بكاء مئات الأطفال وأنين الجرحى وبكاء النسوة كلها تعلوا وتزداد. وما إن دخلنا في ذلك الممر المرعب، قمت بلف العصابة على أعين أخويَّ. فحملت أخي الصغير آبراهام على كتفي، وأما أخي بوغوس، فأمسكت بيده وسرنا نحو المياه، من بين مئات الجثث.

فصرت أحاور نفسي قائلاً:

<<يا إلهي! هل يمكن أن تصل قسوة ووحشية البشر إلى هذا الحد؟

هل يمكن للإنسان أن يكره أخاه الإنسان لأي سببٍ كان إلى هذا الحد؟!!

إنها مجزرةٌ! أو لابد أن لها تسميةٌ أخرى لا أعرفه، لأنني إنسان بسيط!

المئات... والمئات من الجثث المقطعة الأوصال، والعارية، والمقطوعة

الرأس!!!

مئات الجثث، التي هُشمت رؤوسها بحوافر الخيول.!!

مئات الأطفال الرضع مقتولون، وهم على صدور أمهاتهم...!!

مئات الصبية الصغار، الذين لا يقوون على السير بسبب الجوع. قُتل

ذووهم أو قاموا بتركهم هناك، لربما تُكتب لهم فرصةٌ للحياة، وأما أمهاتهم

فألقين بأنفسهن في مياه الوادي، التي لا ترحم>>.

كان المنظر رهيبًا... رهيبًا جدًا... جدًا... ما زلت إلى اليوم أتذكر تلك الصور البشعة، وذلك المشهد الرهيب.

شاهدتُ مئات الشيوخ والعجائز، الذين لم يقوؤا على عبور الوادي، فظلوا هناك، يداهمهم الجوع والمرض إلى أن يلقوا حذفهم...

المئات كانوا يصرخون لنا:

<<أخرجونا من هنا رجاءً! أعطونا طعامًا. يا بني، ساعدونا..!>>

آه، يا إلهي! كان منظرًا مأساويًا.

فكنا جميعًا نبكي، من هول المنظر، والموقف كان مؤلما أكثر بالنسبة لنا؛ لأننا لم نكن نستطيع تقديم يد المساعدة لهم.

فنحن بالكاد كنا نقوى على الحراك من شدة الجوع والتعب. كنا نتقدم نحو مياه الوادي، ونحن نحترق حزنًا وألمًا على بني جنسنا، كنا في ذهولٍ عجيبٍ. فقدنا الإحساس بما حولنا لدرجةٍ أن عشرة فرسانٍ اقتربوا خلفنا، ولم نشعر بوجودهم، ولم نسمع صوت حوافر خيولهم البتا.

نعم عشرة فرسان فيدائيون أرمن جاؤوا من خلفنا بسرعة البرق، فلم نشعر بهم حتى وقفوا بجانبنا وترجلوا نحونا.

فقائد مجموعتهم قال لنا: <<كيف نجوتم من المجرمين الأتراك والأكراد؟>>

فرد عليه ساهاك وقال: <<نجونا بفضل الله، ودليلنا هاروتيون، هذا الشاب>>.

كان اسم قائد المجموعة الفدائية هذه (هوفاز)،

ثم سألنا: <<هل شاهدتم أحد القوافل الأرمنية في الطريق وهي تتجه إلى هنا؟>>

فرد عليه ساهاك وقال: <<كلا، لم نشاهد إلا قافلةً كان يأسرها الأتراك وأخذوها بعيدًا>>.

فقال المقاتل هوفاز: <<إذًا، سنعبر معًا الوادي ومياهه المتوحشة، والخيول ستساعدنا... ثم نعود لنجدة من نستطيع مساعدتهم>>.

فقلت في قلبي: <<شكرًا لك يا إلهي، لقد أرسلت نجدةً لنا>>.

فقام الفرسان بشد حبالٍ قصيرةٍ وكثيرةٍ إلى أسرجة أحصنتهم العشرة، ووضعوا فوق أحد الخيول أخويَّ وربطوهما، وأمسكتُ أنا أحد الحبال. ووضعوا فوق باقي الخيول مجموعةً كبيرةً من الصبية، الذين يستطيعون المشي، وتمسك المقاتلون بالحبال، ودخلنا في مياه ذلك الوادي القاتل، وادي الموت أو الذبح (كودوراتس كالي).

كانت مياهه عنيدةً وشديدة السرعة، تتلاطم على الضفاف والصخور. مياه هذا الوادي قد قتلت الآلاف من الأرمن الفارين من المجازر التركية.

لن أنسى تلك اللحظات، كانت تلك سرعة تلك المياه كسرعة الرصاص، وقسوتها كثورٍ هائجٍ، تحاول بكل الطرق خطف أكبر عددٍ من الأرواح.

لكن الخيول القوية المتراصة جنب بعضها البعض، قادتنا من خلال مصارعتها لامواج المياه العنيدةَ، عبرنا شيئًا فشيئًا، بالصلاة والدعاء والصراخ، عبرنا. فخرجتْ بنا الخيول على جرف الحافة الثانية من الوادي.

يا إلهي، إنها معجزةٌ حقيقيةٌ! شكرًا لله! وما إن أنزلتُ أخويَّ بأمانٍ من فوق ظهر الحصان، حتى احتضنتهما، وأجهشنا بالبكاء. بكيت بكاءً مرًا، وأذرفت الدمع على ضفاف ذلك الوادي، وأنا أشاهد الضفة الثانية، التي أتينا منها.

هنا فقط، عندما عبرنا وادي الموت هذا، هنا على ضفته، الآن فقط، شعرتُ بأنني أُبعدت من وطني، ولن أعود إليه ثانيةً، إنها نظرة الوداع، نظرة الوداع الأخير...

آه... سأبقى أرثيك ما حييت، فبالرغم مما قاسيناه فيكَ إلا أنك غالٍ جدًا، يا وطني.
يا من شرب ترابُه دمَ أهلي وأحبتي وأقاربي.

سأرثيك ما دمتُ حيًا...

هنا فقط على هذه الضفة الغريبة، شعرت أن جسدي فقط هو الذي عبر الوادي ، وأما روحي وأشواقي وقلبي وذكرياتي كلها، فبقيَت حيةً هناك...

في جبال مدينة أجدادي: موكس.

حيث في ثراك ترقد بهدوءٍ أجسادُ أجدادي، ويمكث فيكِ محراثنا منتظرًا أن نعود ونخرجهُ من الثرا...

نعم عبرت ونجوت أنا وأخواي، لكن عبرة جسدٍ بلا روحٍ. فهل سيلتقي يومًا جسدي بروحي، التي ظلت هائمةً في أراضي الطرف الآخَر من هذا الوادي..؟

وبعد ما عبرنا وأخذنا قسطًا من الراحة، عبرت المجموعة الفدائية الأرمنية، المكونة من عشرة مقاتلين فرسانٍ، مياه ذلك الوادي راجعةً مرةً أخرى؛ للطرف الاخر لينقذوا من يستطيعون إنقاذه.

فأنقذوا أكثر من مئتي صبيٍّ آخَر. وهكذا بقوا النهار كله يحاولون إنقاذ أكبر عددٍ ممكنٍ من الأطفال، ينقلونهم من ضفة الوادي تلك إلى هذه الضفة، التي هي شبه آمنةٍ.

هنا جاء ساهاك والمقاتلون الأربعة، الذين معه لتوديعنا... فقد حصلوا على أسلحةٍ وذخيرةٍ وخيولٍ، فترجلوا نحونا وقال ساهاك لي:

<<يهارتيون، لولاك، لولا نباهتك وعلمك، لما استطعنا أن ننجوَ ونصل إلى هنا... كنا سنتوه بدونك في الجبال، حتى نموت جوعًا أو نُقتل>>.

فأمسكني وقبَّل رأسي، وقبَّل أخويَّ وقال:

<<سنفترق هنا، اعتنِ بنفسك وبأخويك، وإذا شاء الله، سنلتقي يومًا ما في الوطن من جديد. وأيضا، سآتي للمراعي مرة أخرى، وأطلب الحليب واللبن منك كما في الأيام التي خلت... أكرر شكري لك يا أخي>>.

وشكرني المقاتلون الباقون، وامتطوا خيولهم وذهبوا، ولم ألتقي بهم فيما بعد.

وأما أنا وأخواي ومجموعة الصبية، الذين أُنقذوا، فسرنا في طريقٍ ترابيّ مع الآخرين لبضع ساعاتٍ، حتى وصلنا مخيمًا صغيرًا ومحروسًا من قبل الفدائيين الأرمن. فقدموا لنا بعض الماء وحبات الحنطة لنأكلها.

كان في هذا المخيم، على ما أعتقد، أكثر من ألفي ناجٍ بين رجالٍ ونساءٍ، والكثير من الأطفال. فأمضينا الليل هناك، وفي الصباح ساروا بنا حتى وصلنا إلى مخيمٍ أكبر بالقرب من مدينة سالماست الإيرانية.

وقد قدموا لنا طعامًا ساخنًا، وقدموا ملابسَ وبعض الأغطية، وهكذا أصبحنا مهاجرين...

يا لبؤس وشقاء الزمن! نحن -أصحاب قطعان الماشية والأراضي والعيشة الكريمة- أصبحنا الآن مشردين تحت خيمةٍ، نستعطي الخبز من الآخرين!

لا نملك أي شيءٍ، أي شيءٍ سوى الذكريات... فقد هربنا للنفذ بجلدنا وهندامنا فقط، تاركين ما نملك ليستولي عليه الآخرون بدون أي حقٍّ.

هذه ليست معادلةً صحيحةً. لماذا حدث هذا؟ ماذا فعلنا؟ حتى يفعلوا هذا بنا؟ لا أعرف، لا أعرف.!!

لم أكن أفكر في شيءٍ أبدًا سوى حماية أخويَّ، أذكر أن في هذا المعسكر سألني أحد الأشخاص، وقال: <<يا بني هل أنت متزوجٌ؟>>

لم أعرف بماذا أجيب، من هول ما رأيت لم أعد أذكر هل كنت متزوجًا أم أعزبًا؟

فأجاب أخي آبرهام:

<<نعم يا عم، تزوج حديثًا لكن يبدو أن زوجته قد قُتلت مع أهلها وأقاربها في قريتهم أثناء تواجدها هناك، فهو الآن أرملُ>>.

ومرت الأحداث هنا في هذا المعسكر بشكلٍ سريعٍ، وسمعنا أن هناك قوافلُ أرمنيةٌ بدأت تتحرك من سالماست إلى أرمينيا، ويبدو أننا سنتحرك خلفهم أو بعد أن تصل تلك القوافل، التي سبقتنا...

لكن بعد أربعة شهورٍ تحرك معسكرنا إلى أرضٍ كبيرةٍ وواسعةٍ وبعيدةٍ عن سالماست، وقالوا بأن جيشًا من الإنكليزيين سيأخذنا إلى بلدٍ آمنٍ.

فسرنا لأيامٍ كثيرةٍ برفقة جنودٍ إنكليزيين، فوصلنا إلى مكانٍ كان يسمى (بعقوبة)، قالوا بأننا الآن في العراق.

أدخلونا في معسكرٍ كبيرٍ جدًا، فيه خيمٌ بيضاء على مرمى البصر. وأعطونا خيمةً: أنا وأخوي مع شابين أخوَين، كانا قد فرًا من مدينة (فان).

كان الرجال في المخيمات يجتمعون في حلقاتٍ، هنا وهناك يوميًا، صباحًا ومساءً، ويتناقلون أطراف الحديث، ويتساءلون بعضهم عن بعضٍ، وعن أقربائهم وأهلهم. لعل أحدٌ يعرف أي شيءٍ عنهم!

وكان هذان الشابان اليتيمان يذهبان يوميًا إلى تلك الحلقات، يتساءلان عن أخيهم الأكبر، الذي فقداه في الطريق.

وفي أحد الأماسي عندما رجعا إلى الخيمة، قالا لي:

<<يا هاروتيون، سمعنا رجلًا يتساءل عن عائلة مغسي هاروتيون، وقال:

<إنها كانت تسكن في مدينة موكس>. أليس هذا لقب عائلتك؟>>

فأدهشني الخبر وقلت بدهشتٍ: <<مَن كان ذلك الرجل؟>>

فقالا: <<لا نعرف مَن هو، لكنه كان يسأل بين المجاميع عن اسم عائلتكم!>>

كان الأمر غريبًا جدًا، فقال أخي بوغوس:

<<يمكن أن يكون أحد خوالنا، أو مِن أبناء عمومتنا، قد نجى من المذابح. اذهبْ وتأكد من الأمر يوم غدٍ>>.

وفي اليوم التالي، رافقت الشابين إلى تلك المجاميع، التي كان افرادها يتسالون عن اخبار الاخرين ويبحثون عن أقاربهم وذويهم المفقودين...

وإذ بي أشاهد العم سركيس، والد البنت، التي جلبتها جدتي زوجةً لي. فهو الذي مَن كان يسأل عنا.

فركضتُ إليه وعانقته وهو عانقني وقال:

<<هل نجوتم يا بني؟>>

فقلت: <<لا ... لم ينجُ منا إلا أنا وأخويَّ>>.

فقال: <<آه... يا للخسارة! يا للخسارة! تعال، تعال إلى خيمتنا يا بني، فامرأتك قد نجت، وولداي نجيا أيضًا>>.

فأخذتُ أخويَّ وذهبنا معه إلى خيمتهم.

وهنا فقط التقينا أنا وجدتك وجهًا لوجهٍ لأول مرةٍ، يا حفيدي العزيز.

التقينا في لقاءٍ مؤلمٍ جدًا، لقد سقطتُ أنا وأخواي على الأرض، وبكينا بكاءً مُرًا، تحت خيمتهم؛ لأنني شعرت أن الآن قد جاء الوقت الذي يجب أن أندب أهلي:

أبي... أمي... أخواتي... عماتي... آه، كم بكينا في ذلك اليوم!

فشعرتُ بنوعٍ من الأمان خاصةً بعدما انتقلنا للعيش في نفس الخيمة معهم. شعرتُ بالأمان، فوالد زوجتي كان رجلًا بالغًا، يستطيع أن يتحمل مسؤوليتنا جميعًا.

لكن الأقدار كانت على عكس ما تمنينا... فما هو إلا شهرًا أو أكثر حتى تمرض حميَّ، والد يالدوز جَدتك، وتوفى هناك...

فعدت أنا مرةً أخرى لتحمل مسؤولية أخويَّ، وامرأتِي وأخوَيها الصغيرين.

وهكذا يا حفيدي العزيز. نقلنا الإنكليز من معسكر بعقوبة إلى صحراء بالقرب من ملتقى نهري الدجلة والفرات، إلى منطقة (نهر العمر).

وكانوا يُعدون العدة لنقلنا إلى أرمينيا عبر البحر. فأخذوا أخويْ جدتك باعتبارهم أيتاماً، أما عن أخويَّ: آبراهام وبوغوص، فلم يعرفوا بأنهما يتيمين، فبقيا معنا.

وكانت الخطة أن ينقلونا جميعًا إلى أرمينيا من بعدهم، لكن تغيرت الأمور، وبقينا في تلك الأرض القاحلة. ثم مرت الأيام وانتقلنا إلى مكانٍ بالقرب من الحدود العراقية التركية على رجاء أن نعبر يومًا، ونعود إلى أراضينا ومدننا وقرانا وبيوتنا...

فمرتِ الأيام، وها أنا جالسٌ في هذه الحديقة في بغداد، بالكاد أقوى على السير.

أفنيت شبابي في هذه الأرض، محاولًا تربية عائلتي والحفاظ عليها.

وعرفانًا مني لفضل اولائك الفدائيين الذين صاروا سببا لنجاتنا، اسميت اولادي جميعا بأسماء افراد تلك المجموعة (مجموعة الفدائيين) التي كانت سببا لنجاتنا لكن مع الأسف فقد مات ثلاثة منهم وهم أطفال ولم يبقى الا ثلاثة على منهم (مناسكان، افيديس، ترجون)

يا حفيدي العزيز، ما زلت أذكر ذلك اليوم، الذي خبأنا فيه المحراث في الحفرة، ولازلت اذكر حوار ابي مع المحراث الحديدي، حينما قال محاورًا المحراث:

<<لا تخف..لا تخف.. سنعود لنخرجك في وقتٍ قريبٍ. وستعود لتحرث الأرض. لا تخف، لن نتأخر...>>

لكننا تأخرنا...

تأخرنا كثيرًا. لابد أن محراثنا الثمين ما زال ينتظر تحت الأرض، ينتظر أصحابه...

لابد أنه يعتقد بأن الربيع لم يقبلْ بعد...

فلو عدتُ الآن، هل سيعرفني المكان!!؟

هل سيعرفني محراثنا؟ هل ستعرفني الحقول؟

أنا واثقٌ بأنه ما زال المحراث محفوظًا هناك بأمانٍ... ينتظرنا... فهو والأرضَ لا يشعران بالأمان بين أيد الذين يعيشون هناك الآن، لأنهم غرباءُ...

ها قد شختُ أنا... وقد شاخا أخواي... كنت قد أخبرت أبنائي عن محراث أبي، لعلهم يرجعون إلى بيت أجدادهم يومًا من بعدي..!

سيعرفون المكان. وإن لم يعرفوا هم المكانَ، فالمكانُ والأرضَ هي التي ستعرفهم.

والآن يا حفيدي، أخبرك أنت أيضًا عن محراث جدكَ...

تذكر كلامي يا حفيدي الأكبر،

إن لم يعد والدك إلى هناك... فستعود أنت يومًا.
وإن لم تعد أنت... فنسلك سيعود.

لكن لا تنسَ أن تخبرهم بما أخبرتك...

يا حفيدي العزيز... كان هذا دعاء والدي البار... بأننا سنعود قريبًا لنُخرج المحراث ونعود نربطه إلى الثيران، ونحرث به الأرض...

فإنه يومًا، سيشق المحراث أرض أجدادي ثانيةً، وينتشر عبق الأرض وعطرها الثري، في الأجواء. حينئذٍ ستأتي أرواحنا، أنا وعائلتي: أبي، أمي، أخواتي، جيراننا والأحبة، وسنجتمع بالروح في ذلك المكان، ونهلل ونرقص فرحين بتحقيق ذلك الرجاء...

أيا حفيدي، لا تنسَ ما أوصيتك به. تذكر أن في بيتنا شجرة جوزٍ كبيرةٍ، هناك تحتها خبأنا محراثنا في أعماق أرضنا، قد يصل الأوغاد إلى ثمار الجوز، وقد يقطعون الشجرة القديمة، لكنهم لن يصلوا إلى عمق أرضها، حيث ينتظرنا محراثنا.

وإن عدتَ إلى هناك وظللت المكان، لا تحزن ولا تقلق، فالأرض ستتكلم وستعرفك وستصرخ: <<ها هم قد عادوا من جديدٍ! قد عادوا! تعالوا إلى هنا..!>>

يا حفيدي، لا تنسَ محراثَ جدك..."

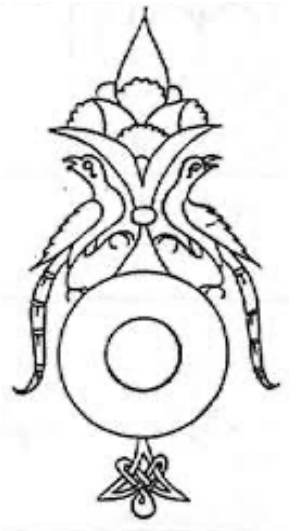

توفى جدي هاروتيون (آرتين) في بغداد، وتوفى من بعده أخواه: بوغوس ثم آبراهام، ثم جدتي يالدوز... ماتوا هم، ومات ذلك الجيل، الذي نجى من المذابح العثمانية، التي نُظمت لإبادة الشعب الأرمني في تركيا في عام ١٩١٥م، مات جميع الناجين من الإبادة الأرمنية.

قد ماتوا وهم يتذكرون و يطالبون بحقهم في وطنٍ سُلب منهم عنوةً. وحتى بعد موتهم، أرواحهم ترفع تلك المطالب حتى في أبديتهم، حيث يشكون أمام الله، ظلم الإنسان وقسوته وعدم الرحمة، طمع الإنسان وجشعه، الذي بلا معنًى. ويطلبون الحقوق، التي سُلبت.

وبموتهم لم تمت قضيتهم، بل ورث، وسيرث الأبناء والأحفاد تلك القضية، وتلك الرسالة الحية، التي من الأجداد، والتي نختصرها بـِ

نَتَذَكَّرُ..! وَنُطَالِبُ..!

فهرس المحتويات

- ألمقدمة ١
- إهداء ٤

ألفصل الأول

- أجيال ترث الألم.....٦
- أحـــداث وقصص.....١٤
- أمـــر غريب.....١٨

ألفصل الثاني

- نغمـــات رثاء.....٢٧
- شـــتاء لا ينتهي.....٣٣
- نخيل العراق بشائر سلام.....٦٩

ألفصل الثالث

- بلد مضياف يفتح ذراعيه لنا.....٧١
- ترحال لا يتوقف ٧٩
- إرث ثمين ٧٩

ألفصل الرابع

- محراث جدي.....٩٣
- تحـــــــــــــــــت نجـــــــــــــــــوم السماء.....١١٩
- أبكـــم شجاع.....١٣٦

ألفصل الخامس

- وداعًا يا وطن.....١٥٨